الإنسان بين العبودية لله والعبودية للعبيد

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد المرسلين،وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد:

فإن الإنسان في هذه الأرض إما أن يكون عبداً لله تعالى وحده،ينفذ أوامره ويبتعد عن نواهيه لكي يسعد في الدارين،وإما أن يكون عبداً لغير الله تعالى من أهواء وشهوات وطواغيت وغيرها مما لا ينفع ولا يضر،وفي ذلك خسارته في الدارين .

قال تعالى:{ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) } [الرعد:٣٣،٣٤]

وقال تعالى:{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [الزمر:٢٩]

يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضا فيه،وهو بينهم موزع ولكل منهم فيه توجيه،ولكل منهم عليه تكليف وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه! وعبد يملكه سيد واحد،وهو يعلم ما يطلبه منه،ويكلفه به،فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح ..«هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا؟ » ..إنهما لا يستويان.فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين.وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه،ووضوح الطريق.والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضي واحدا منهم فضلا على أن يرضي الجميع! وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال.فالقلب

المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى،لأن بصره أبدا معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق.

ولأنه يعرف مصدرا واحدا للحياة والقوة والرزق،ومصدرا واحدا للنفع والضر،ومصدرا واحدا للمنح والمنع،فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد،يستمد منه وحده،ويعلق يديه بحبل واحد يشد عروته.ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره.ويخدم سيدا واحدا يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتقيه ..وبذلك تتجمع طاقته وتتوحد،فينتج بكل طاقته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء ..[1]

إنَّ الإسلام هو منهج الحياة الوحيد،الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر.لأنهم يتلقون التصورات والمبادئ،والموازين والقيم،والشرائع والقوانين،والأوضاع والتقاليد،من يد الله – سبحانه – فإذا أحنوا رءوسهم فإنما يحنونها لله وحده،وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده،وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده.ومن ثم يتحررون حقا من عبودية العبيد للعبيد،حين يصبحون كلهم عبيدا لله بلا شريك.[2]

إن العبودية لله وحده هي العاصم من العبودية للهوى،والعاصم من العبودية للعباد ..وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له،إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه.

إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا لله وحده،يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى.

يقعون من فورهم عبيدا لهواهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خص الله بها نوع «الإنسان» من بين سائر الأنواع وينحدرون في

---

[1] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٤٠)

[2] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٨٧٦)

سلم الدواب فإذا هم شر الدواب،وإذا هم كالأنعام بل هم أضل،وإذا هم أسفل سافلين بعد أن كانوا – كما خلقهم الله – في أحسن تقويم.

كذلك يقع الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا لله في شر العبوديات الأخرى وأحطها ..يقعون في عبودية العبيد من أمثالهم،يصرفون حياتهم وفق هواهم،ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر،مشوبة بحب الاستعلاء،كما هي مشوبة بالجهل والنقص والهوى! ويقعون في عبودية «الحتميات» التي يقال لهم:إنه لا قبل لهم بها،وإنه لا بد من أن يخضعوا لها ولا يناقشوها ..«حتمية التاريخ» ..و«حتمية الاقتصاد» ..و«حتمية التطور» وسائر الحتميات المادية التي تمرغ جبين «الإنسان» في الرغام وهو لا يملك أن يرفعه،ولا أن يناقش – في عبوديته البائسة الذليلة – هذه الحتميات الجبارة المذلة المخيفة![3]

وفي كتابنا هذا تعرضت للموضوعات التالية:

- القرآن الكريم يصحح عقائد أهل الكتاب وغيرهم
- كمال الدين ببعثة محمد ﷺ
- السمات الأصيلة والعميقة للمنهج الحركي الواقعي
- مفرق الطريق بين العبودية للّه وحده والعبودية للهوى
- طبيعة المنهج الحركي الإسلامي
- موقف الكفار والفجار من المؤمنين الموحدين
- الواقع التاريخي لنشوء المجتمع الإسلامي الحركي قبل الفتح وبعده
- تكاليف البيعة على الجهاد في سبيل الله
- الذين يفقهون هذا الدين حق الفقه
- ما عند الله تعالى من خير عميم خير مما يجمع الناس
- تكذيب الرسل واتهامهم بتهم كاذبة ديدن المستكبرين في الأرض

---

[3] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٥٩)

- الدينونة للّه وحده وآثارها في الحياة الإنسانية
- موقف الجاهلية من دعوة الرسل عبر التاريخ
- رفع الإصر عن الموحدين
- الراسخون في العلم يقولون
- أول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية
- التصورات الباطلة عند المشركين
- حال المجتمعات البشرية اليوم
- العبودية لله لا تلتقي مع عبودية غيره أبدا
- الإيمان والحياة
- وجوب أعداد العدة لمواجهة الكفار

إنَّ الإصر الأكبر الذي رفعه الله عن كاهل الأمة المسلمة،والذي حمله الله على عـــاتق الأمم التي استخلفها في الأرض قبلهم فنقضت عهد الاستخلاف وحادت عنه ..هـــذا الإصر الأكبر هو إصر العبودية للبشر.عبودية العبد للعبد.ممثلـــة في تشـــريع العبـــد للعبد.وفي خضوع العبد للعبد لذاته أو لطبقته أو لجنسه ..فهذا هو الإصر الأكبر الذي أطلق الله عباده المؤمنين منه،فردهم إلى عبادته وحده وطاعته وحده،وتلقي الشريعة منه وحده.وحرر بهذه العبودية لله الواحد الأحد أرواحهم وعقولهم وحياتهم كلـــها مـــن العبودية للعبيد!

إن العبودية لله وحده – متمثلة في تلقي الشرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده – هي نقطة الانطلاق والتحرر البشري.الانطلاق والتحرر مـــن ســـلطان الجبـــارين والطغاة،ومن سلطان السدنة والكهنة،ومن سلطان الأوهام والخرافات،ومن ســـلطان العرف والعادة،ومن سلطان الهوى والشهوة.ومن كل سلطان زائف يمثل الإصر الذي يلوي أعناق البشر ويخفض جباههم لغير الواحد القهار.ودعاء المـــؤمنين:«وَلا تَحْمِـــلْ

عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا»:يمثل شعورهم بنعمة الانطلاق والتحـــرر من العبودية للعبيد كما يمثل خوفهم من الارتداد إلى ذلك الدرك السحيق.[٤]

أسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والدال عليه في الدارين .

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في ٨ ربيع الأول ١٤٣٣ هـ الموافق ل ٢٠١٢/١/٣١ م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٦٠٦)

القرآن الكريم يردُّ على مزاعم المشركين في شركهم

قال تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)} [الأنعام:١٤٨ - ١٥٠]

سَيَقُولُ هَؤُلاَءِ الُمشْرِكُونَ،اعْتِذَاراً عَنْ شِرِكِهِمْ،لَوْ شَاءَ اللهُ ألاَّ نُشْرِكَ بِهِ،وَلاَ يُشْرِكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلِنا،لَمَا أَشْرَكْنَا،وَلَمَا أَشْرَكُوا،وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَلاَّ نُحَرِّمَ شَيْئاً مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ وَغَيْرِها،لَمَا حَرَّمْنَا،وَلَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ نُشْرِكَ بِهِ الأَوْلِيَاءَ وَالشُّفَعَاءِ،وَشَاءَ أَنْ نُحَرِّمَ مَا حَرَّمْنَا مِنَ البَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَغَيْرِها فَحَرَّمْنَاهَا،فَإِتْيَانُنا بِهَا دَلِيلٌ عَلَى مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى،وَعَلَى رِضَاهُ بِهَا .

وَكَمَا كَذَّبَ مُشْرِكُو مَكَّةَ رَسُولَهُمْ مُحَمَّداً ﷺ،فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ،كَذَلِكَ كَذَّبَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ رُسُلَهُمْ تَكْذِيباً غَيْرَ مَبْنِيٍّ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ العِلْمِ.وَالرُّسُلُ قَدْ أَقَامُوا الأَدِلَّةَ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى،وَأَيَّدَهُمُ اللهُ بِالآيَاتِ،وَالُمعْجِزَاتِ عَلَى صِدْقِهِمْ،فَأَعْرَضَ المُكَذِّبُونَ،وَأَصَرُّوا عَلَى جُحُودِهِمْ،فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ (حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا) .

وَلَوْ كَانَ اللهُ رَاضِياً عَنْ أَفْعَالِهِمْ لَمَا عَاقَبَهُمْ عَلَيْهَا،كَذَلِكَ لَوْ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ صَادِرَةً عَنْهُمْ جَبْراً،لَمَا اسْتَحَقُّوا العِقَابَ عَلَيْها،وَلَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى:إِنَّهُ أَخَذَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ،وَأَهْلَكَهُمْ بِظُلْمِهِمْ.وَاسْأَلْهُمْ يَا مُحَمَّدُ:هَلْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يَقُولُونَ وَيَحْتَجُّونَ؟ فَإِنْ كَانَ عِنْدَهُمْ مُسْتَنَدٌ صَحِيحٌ عَلَى أَنَّ اللهَ رَضِيَ لَهُم الشِّرْكَ،وَالتَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ،فَلْيُظْهِرُوهُ .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى:إِنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيءٍ مِنَ العِلْمِ الصَّحِيحِ،بَلْ تَتَّبِعُونَ فِي عَقَائِدِكُمْ وَآرَائِكُمُ الحَدْسَ وَالتَّخْمِينَ الذِي لاَ يَسْتَقِرُّ عِنْدَهُ حُكْمٌ .[٥]

[٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد [ص ٩٣٨]

فهم يحيلون شركهم هم وآباؤهم،وتحريمهم ما حرموه مما لم يحرمه اللّه،وادعاءهم أن هــذا من شرع اللّه بغير علم ولا دليل .

يحيلون هذا كله على مشيئة اللّه بهم.فلو شاء اللّه ما أشركوا ولا حرموا ..فكيف واجـه القرآن الكريم هذه المقولة؟

لقد واجهها بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم،وقد ذاق المكذبون من قبلهم بـأس اللّه.وبأس اللّه ينتظر المكذبين الجدد:«كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا».

وهذه هي الهزة التي قد تحرك المشاعر،وتوقظ من الغفلة،وتوجه إلى العبرة ..

واللمسة الثانية كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر ..إن اللّه أمرهم بأوامر ونهاهم عـن محظورات ..وهذا ما يملكون أن يعلموه علما مستيقنا ..فأما مشيئة اللّه فهـي غيـب لا وسيلة لهم إليه،فكيف يعلمونه؟ وإذا لم يعلموه يقينا فكيف يحيلون عليه:«قُلْ:هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ» ..

إن للّه أوامر ونواهي معلومة علما قطعيا،فلما ذا يتركون هذه المعلومات القطعية،ليمضـوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه؟

هذا هو فصل القول في هذه القضية ..إن اللّه لا يكلف الناس أن يعلموا غيـب مشـيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه.إنما يكلفهم أن يعلموا أوامـره ونواهيـه،ليكيفوا أنفسهم على حسبها ..وهم حين يحاولون هذا يقرر اللّه سبحانه أنه يهديهم إليه،ويشرح صدورهم للإسلام ..وهذا حسبهم في القضية التي تبدو عندئذ – في واقعهـا العملـي – يسيرة واضحة،بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته! إن اللّه قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى،أو يقهرهم على الهدى.أو يقـذف بالهـدى في قلوبهم فيهتدوا بلا قهر ...ولكنه – سبحانه – شاء غير هذا! شـاء أن يبتلـي بـني آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال،ليعين مـن يتجـه منـهم إلى الهـدى علـى الهدى،وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عمايته ..وجرت سنته بما شاء ..

«قُلْ:فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ،فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ».

قضية واضحة،مصوغة في أيسر صورة يدركها الإدراك البشري.فأما المعاظلة فيها والمجادلة فهي غريبة على الحس الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي ..ولم ينته الجدل فيهـا في أيـة فلسفة أو أي لاهوت إلى نتيجة مريحة.لأنه جدل يتناول القضـية بأسـلوب لا يناسـب طبيعتها ..

إن طبيعة أي حقيقة هي التي تحدد منهج تناولها،وأسلوب التعبير عنها كذلك.الحقيقة المادية يمكن تناولها بتجارب المعمل.والحقيقة الرياضية يمكن تناولها بفروض الذهن.والحقيقة الـتي وراء هذا المدى،لا بد أن تتناول بمنهج آخر ..هو كما قلنا من قبل:منهج التذوق الفعلـي لهذه الحقيقة في مجالها الفعلي.ومحاولة التعبير عنها بغير أسلوب القضايا الذهنية التي عولجت بها في كل ما جرى حولها من الجدل قديما وحديثا.

وبعد فلقد جاء هذا الدين ليحقق واقعا عمليا تحدده أوامر ونواه واضحة.فالإحالة علـى المشيئة الغيبية دخول في متاهة،يرتادها العقل بغير دليل،ومضيعة للجهد الـذي ينبغـي أن ينفق في العمل الإيجابي الواقعي المشهود.

وأخيرا يوجه اللّه – سبحانه – رسوله – ﷺ– إلى مواجهة المشركين في موقف الإشـهاد على قضية التشريع،كما واجههم من قبل في موقف الإشهاد على قضية الألوهية في أوائل السورة:في أوائل السورة قال له:«قُلْ:أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً؟ قُـلِ اللَّـهُ.شَـهِيدٌ بَيْنِـي وَبَيْنَكُمْ،وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ.أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّـهِ آلِهَـةً أُخْرى ؟ قُلْ:لا أَشْهَدُ.قُلْ:إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ،وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ»..

وهنا قال له:« قُلْ:هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا.فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ.وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ،وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ».

إنها مواجهة هائلة،ومواجهة كذلك فاصلة.ودلالتها على طبيعة هذا الدين غير خافية ..إن هذا الدين يسوي بين الشرك العلني الواضح باتخاذ آلهة أخرى مع اللّه وبين الشرك الآخـر الذي يتمثل في مزاولة حق الحاكمية والتشريع للناس بما لم يأذن به اللّه – دون اعتبار لمـا يدعونه هم من أن ما يشرعونه هو شريعة اللّه! – كما أنه يصم الذين يرتكبون هذه الفعلة بأنهم يكذبون بآيات اللّه،ولا يؤمنون بالآخرة،وهم بربهم يعدلون ..أي يجعلون له أنـدادا

تعدله ..وهو ذات التعبير الذي جاء في أول آية في السورة وصفا للذين كفروا:«الْحَمْـدُ للَّه الَّذي خَلَقَ السَّماوات وَالْأَرْضَ،وَجَعَلَ الظُّلُمات وَالنُّورَ،ثُمَّ الَّـذِينَ كَفَـرُوا بِـرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» ..

هذا حكم اللّه على الذين يغتصبون حق الحاكمية ويزاولونه بالتشريع للناس – دون اعتبار لدعواهم أن ما يشرعونه هو من شريعة اللّه! – وليس بعد حكم اللّه رأي لأحد في هـذه القضية الخطيرة.

فإذا أردنا أن نفهم لماذا يقضي اللّه – سبحانه – بهذا الحكم؟ ولما ذا يعدهم مكذبين بآياته غير مؤمنين بالآخرة،مشركين يعدلون بربهم غيره ..فإن لنا أن نحاول الفهم.فتدبر حكمـة اللّه في شرعه وحكمه أمر مطلوب من المسلم ..

إن اللّه قد حكم على المشرعين للناس من عند أنفسهم – مهما قالوا إنه من شرع اللّـه – بأنهم يكذبون بآياته.لأن آياته – إن كان المراد بها آياته الكونية – كلها تشهد بأنه الخالق الرازق الواحد ..والخالق الرازق هو المالك.فيجب أن يكون وحده المتصـرف الحـاكم ..فمن لم يفرده – سبحانه – بالحاكمية فقد كذب بآياته هذه ..وإن كان المقصود آياتـه القرآنية،فالنصوص فيها حاسمة وصريحة وواضـحة في وجـوب إفـراده – سـبحانه – بالحاكمية في حياة البشر الواقعية،واتخاذ شريعته وحدها قانونا،وتعبيد الناس لـه وحـده بالشرع النافذ والحكم القاهر ..

كذلك حكم عليهم – سبحانه – بأنهم لا يؤمنون بالآخرة ..فالذي يؤمن بالآخرة،ويوقن أنه ملاق ربه يوم القيامة،لا يمكن أن يعتدي على ألوهية اللّه،ويدعي لنفسه حقـه الـذي يتفرد به.وهو حق الحاكمية المطلقة في حياة البشر.ممثلة هذه الحاكمية في قضائه وقدره،وفي شريعته وحكمه ..

ثم حكم عليهم في النهاية بأنهم بربهم يعدلون ..أي أنه حكم عليهم بالشرك الذي وصف به الكافرين ذلك أنهم لو كانوا موحدين ما شاركوا اللّه – سبحانه – في حق الحاكميـة الذي تفرد به.أو ما قبلوا من عبد أن يدعيه ويزاوله وهم راضون! هذه – فيما يبـدولنا – هي علة حكم اللّه على من يزاولون حق الحاكميـة ويشـرعون للنـاس مـا لم يـأذن

به،بالتكذيب بآياته،وعدم الإيمان بالآخرة والشرك الذي يتحقق به الكفر ..أما الحكم ذاته فلا يملك «مسلم» أن يجادل فيه.فقد صدرت فيه كلمة الفصل التي لا معقب عليها.فلينظر كل «مسلم» كيف يتأدب أمام كلمة العزيز الحكيم ..[٦]



[٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٦٦٣]

قال تعالى:{ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)} [النساء:١٧٢،١٧٣].

لاَ يَسْتَكْبِرُ المَسِيحُ،وَلاَ يَسْتَكْبِرُ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ،أنْ يَكُونُوا مِنْ عِبَادِ اللهِ،لأنَّهُمْ يَعْرِفُونَ عَظَمَتِهِ وَجَلاَلِه،وَالذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ،وَيَرَوْنَ أنَّهُ لاَ يَلِيقُ بِهِمْ ذَلِكَ،فَإنَّهُ سَيُعَاقِبُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِقَاباً شَدِيداً،وَيَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً فِي جَهَنَّمَ .

أمَّا الذِينَ آمَنُوا،وَعَمِلُوا الأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ،فَيَجْزِيهِمْ رَبُّهُمْ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ،وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ.وَأمَّا الذِينَ اسْتَكْبَرُوا عَنْ طَاعَةِ اللهِ،وَامْتَنَعُوا عَنْ عِبَادَتِهِ،فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أليماً،فَهُوَ تَعَالَى يُجَازِي المُحْسِنَ عَلَى إحْسَانِهِ بِالعَدْلِ وَالفَضْلِ،وَيُجازِي المُسِيءَ عَلَى إسَاءَتِهِ بِالعَدْلِ.وَلَنْ يَجِدُوا لَهُمْ وَلِيّاً يَلِي أُمُورَهُمْ وَيُدَبِّرُها،وَلاَ نَاصِراً يَنْصُرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَبَأسِهِ .[٧]

لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية اللّه سبحانه وحدانية لا تتبلس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور وعني بتقرير أن اللّه – سبحانه – ليس كمثله شيء.فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية.كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين اللّه – سبحانه –وكل شيء (بما في ذلك كل حي) وهي أنها صلة ألوهية وعبودية.ألوهية اللّه،وعبودية كل شيء للّه ..والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق – أو هذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه – بحيث لا تدع في النفس ظلا من شك أو شبهة أو غموض.

ولقد عني الإسلام كذلك بأن يقرر أن هذه هي الحقيقة التي جاء بها الرسل أجمعون.فقررها في سيرة كل رسول،وفي دعوة كل رسول وجعلها محور الرسالة من عهد

[٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

نوح عليه السلام،إلى عهد محمد خاتم النبيين – عليه الصلاة والسلام – تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ» ..

وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية – وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة – يكون منهم من يحرف هذه الحقيقة وينسب للّه – سبحانه – البنين والبنات أو ينسب للّه – سبحانه – الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم اقتباسا من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات! ألوهية وعبودية ..ولا شيء غير هذه الحقيقة.ولا قاعدة إلا هذه القاعدة.ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية،وصلة العبودية بالألوهية ..

ولا تستقيم تصورات الناس – كما لا تستقيم حياتهم – إلا بتمحيض هذه الحقيقة من كل غبش،ومن كل شبهة،ومن كل ظل! أجل لا تستقيم تصورات الناس،ولا تستقر مشاعرهم،إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم ..

هو إله لهم وهم عبيده ..هو خالق لهم وهم مخاليق ..هو مالك لهم وهم مماليك ..وهم كلهم سواء في هذه الصلة،لا بنوة لأحد.ولا امتزاج بأحد ..ومن ثمّ لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه:التقوى والعمل الصالح ..وهذا في مستطاع كل أحد أن يحاوله.فأما البنوة،وأما الامتزاج فانى بهما لكل أحد؟! ولا تستقيم حياتهم وارتباطاتهم ووظائفهم في الحياة،إلا حين تستقر في أخلادهم تلك الحقيقة:أنهم كلهم عبيد لرب واحد ..ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد ..فأما القربى إليه ففي متناول الجميع ..عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان،لأنهم متساوون في موقفهم من صاحب السلطان ..وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة في الوساطة بين اللّه والناس وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لفرد أو لمجموعة أو لسلسلة من النسب لطائفة من الناس ..وبغير هذا لا تكون هناك مساواة أصيلة الجذور في حياة بني الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم في هذا النظام!

فالمسألة – على هذا – ليست – مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركين،فحسب،إنما هي كذلك مسألة نظام حياة،وارتباطات مجتمع،وعلاقات أمم وأجيال من بني الإنسان.

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام ..ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد،بالعبودية لرب العباد ..ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام «كنيسة» تستذل رقاب الناس،بوصفها الممثلة لابن اللّه،أو للأقنوم المتمم للأقانيم الإلهية المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم.و لم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم «بالحق الإلهي» زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من اللّه!

وقد ظلّ «الحق المقدس» للكنيسة والبابوات في جانب وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقا مقدسا كحق الكنيسة في جانب ..ظل هذا الحق أو ذاك قائما في أوربا باسم (الابن) أو مركب الأقانيم.حتى جاء «الصليبيون» إلى أرض الإسلام مغيرين.فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على «الحق المقدس» وكانت فيما بعد ثورات «مارتن لوثر» و«كالفن» و«زنجلي» المسماة بحركة الإصلاح ..على أساس من تأثير الإسلام،ووضوح التصور الإسلامي،ونفي القداسة عن بني الإنسان ونفي التفويض في السلطان ..لأنه ليست هنالك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام ..[8]

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته وألوهية روح القدس (أحد الأقانيم) وفي كل أسطورة عن بنوة أحد للّه،أو ألوهية أحد مع اللّه،في أي شكل من الأشكال ..يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى بن مريم عبد للّه وأنه لن يستنكف أن يكون عبدا للّه.وأن الملائكة المقربين عبيد للّه وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا للّه.وأن جميع خلائقه ستحشر إليه.وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم.وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم:«لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّه – وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ – وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِه وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْه جَميعاً.فَأَمَّا الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِه.وَأَمَّا الَّذينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً».

---

[8] – يراجع فصل «التوحيد» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».

إن المسيح عيسى بن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبدا للّه.لأنه – عليه السلام – وهو نبي اللّه ورسوله – خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان.وهو خير من يعرف أنه من خلق اللّه فلا يكون خلق اللّه كاللّه أو بعضا من اللّه! وهو خير من يعرف أن العبودية للّه – فضلا على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة – لا تنقص من قدره.فالعبودية للّه مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء.وهي المرتبة التي يصف اللّه بها رسله،وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده ..وكذلك الملائكة المقربون – وفيهم روح القدس جبريل – شأنهم شأن عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء – فما بال جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة؟! مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً»..

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر اللّه لهم بسلطانه ..سلطان الألوهية على العباد ..شأنهم في هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين للّه ..

فأما الذين عرفوا الحق،فأقروا بعبوديتهم للّه وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

«وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ..

وما يريد اللّه – سبحانه – من عباده أن يقروا له بالعبودية،وأن يعبدوه وحده،لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم،ولا لأنها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء.ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،لتصح تصوراتهم ومشاعرهم،كما تصح حياتهم وأوضاعهم.فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر،ولا أن تستقر الحياة والأوضاع،على أساس سليم قويم،إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار،وما يتبع الإقرار من آثار ..

يريد اللّه – سبحانه – أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بيناها في نفوس الناس وفي حياتهم.ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.ليعرفوا من صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض فلا يخضعوا إلا له،وإلا لمنهجه وشريعته للحياة،وإلا لمن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه.يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد ليرفعوا جباههم

أمام كل من عداه حين تعنو له وحده الوجوه والجباه.يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة،حين يخرون له راكعين ساجدين يذكرون اللّه ولا يذكرون أحدا إلا اللّه.يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب.ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى اللّه.يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،فتكون لهم غيرة على سلطان اللّه في الأرض أن يدعيه المدعون باسم اللّه أو باسم غير اللّه فيردون الأمر كله للّه ..ومن ثم تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس ...

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة وتعليق أنظار البشر للّه وحده وتعليق قلوبهم برضاه وأعمالهم بتقواه ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه ..إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به في الأرض ..في هذه الحياة ..فأما ما يجزي اللّه به المؤمنين المقرين بالعبودية العاملين للصالحات،في الآخرة،فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر.وفيض من عطاء اللّه.

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان باللّه في الصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها ودعوة الرسل جميعا قبل أن يحرفها الأتباع،وتشوهها الأجيال ..يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلادا جديدا للإنسان تتوافر له معه الكرامة والحرية،والعدل والصلاح،والخروج من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده في الشعائر وفي نظام الحياة سواء.والذين يستنكفون من العبودية للّه،يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي ..يذلون لعبودية الهوى والشهوة.أو عبودية الوهم والخرافة.ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم،ويحنون لهم الجباه.ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيدا مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام اللّه ..ولكنهم يتخذونهم آلهة لهم من دون اللّه ..هذا في الدنيا ..أما في الآخرة «فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ..

إنها القضية الكبرى في العقيدة السماوية تعرضها هذه الآية في هذا السياق في مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى في ذلك الزمان.وفي مواجهة الانحرافات كلها إلى آخر الزمان ..[9]



[9] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١١٨٩]

قال تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة:٣]

يَقُولُ مُخَاطِباً الْمُؤْمِنِينَ:إِنَّهُ أَكْمَلَ لَهُمُ اليَوْمَ دِينَهُمُ الإِسْلاَمَ،فَلاَ يَحْتَاجُونَ إلى دِينٍ غَيْرِه،وَلاَ إلى نَبيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ.وَلَمَّا أَكْمَلَ اللهُ لَهُمْ دِينَهُمْ تَمَّتْ عَلَيهِمْ نِعْمَةُ رَبِّهِمْ،فَلْيَرْضَوْا بِالإِسْلاَمِ دِيناً لَهُمْ،فَإِنَّهُ الدِّينُ الذِي أَحَبَّهُ اللهُ وَرَضِيَهُ لَهُمْ .[١٠]

اليوم ..الذي نزلت فيه هذه الآية في حجة الوداع ..أكمل اللّه هذا الدين.فما عادت فيه زيادة لمستزيد.وأتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل.ورضي لهم «الإسلام» دينا فمن لا يرتضيه منهجا لحياته – إذن – فإنما يرفض ما ارتضاه اللّه للمؤمنين.

ويقف المؤمن أمام هذه الكلمات الهائلة فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة،وتوجيهات عميقة،ومقتضيات وتكاليف ..

إن المؤمن يقف أولا:أمام إكمال هذا الدين يستعرض موكب الإيمان،وموكب الرسالات،وموكب الرسل،منذ فجر البشرية،ومنذ أول رسول – آدم عليه السلام – إلى هذه الرسالة الأخيرة.رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين ..فماذا يرى؟ ..يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل.موكب الهدى والنور.ويرى معالم الطريق،على طول الطريق.ولكنه يجد كل رسول – قبل خاتم النبيين – إنما أرسل لقومه.ويرى كل رسالة – قبل الرسالة الأخيرة – إنما جاءت لمرحلة من الزمان ..رسالة خاصة،لمجموعة خاصة،في بيئة خاصة ..ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه متكيفة بهذه الظروف ..كلها تدعو إلى إله واحد – فهذا هو التوحيد – وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد – فهذا هو الدين – وكلها تدعو إلى التلقي عن هذا الإله الواحد والطاعة

---

[١٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٧٣، بترقيم الشاملة آليا)

لهذا الإله الواحد – فهذا هو الإسلام – ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف ..

حتى إذا أراد اللّه أن يختم رسالاته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة،رسولا خاتم النبيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة،في زمان خاص،في ظروف خاصة ..رسالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير:«فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» ..وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها،وفي كل جوانب نشاطها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان ..وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنسان» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات،لكي تستمر،وتنمو،وتتطور،وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار ..وقال اللّه – سبحانه – للذين آمنوا:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ.وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي.وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» ..

فأعلن لهم إكمال العقيدة،وإكمال الشريعة معا ..فهذا هو الدين ..ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين – بمعناه هذا – نقصا يستدعي الإكمال.ولا قصورا يستدعي الإضافة.ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير ..وإلا فما هو بمؤمن وما هو بمقر بصدق اللّه وما هو بمرتض ما ارتضاه اللّه للمؤمنين! إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن،هي شريعة كل زمان،لأنها – بشهادة اللّه – شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان،في جيل من الأجيال،في مكان من الأمكنة،كما كانت تجيء الرسل والرسالات.

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي.والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه،إلا أن تخرج من اطار

الإيمان! واللّه الذي خلق «الإنسان» ويعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة.

فلا يقول:إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم،إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم مـــن اللّـــه بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان! ويقف المؤمن ثانيا:أمـــام إتمـــام نعمـــة اللّـــه علـــى المؤمنين،بإكمال هذا الدين وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة،كما تمثل نشأته واكتمالـــه.«فالإنســـان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له.وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين.وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته علـــى ربه،كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه.

و«الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة اللّه وحده وقبل أن ينـــال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع اللّه وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه.

إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الـــدين هـــي بـــدء مولـــد «الإنسان» ..إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوي يمكن أن يكـــون «حيوانـــا» أو أن يكون «مشروع إنسان» في طريقه إلى التكوين! ولكنه لا يكون «الإنســـان» في أكمـــل صورة للإنسان،إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن ..

والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الصورة،وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان![١١]

وإن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية،لهو الذي يحقق «للإنسان» «إنسانيته» كاملة ..يحققها له وهو يخرجه بالتصور الاعتقادي،في اللّه وملائكته وكتبـــه ورســـله واليـــوم الآخر،من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوســـات،إلى دائـــرة «التصـــور» الإنساني،الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات.عالم الشهادة وعالم الغيب ..عالم المادة وعالم ما وراء المادة ..وينقذه من ضيق الحس الحيواني المحدود![١٢] ويحققها له وهـــو يخرجه بتوحيد اللّه،من العبودية للعباد إلى العبوديـــة للّـــه وحده،والتســـاوي والتحـــرر

[١١] – تراجع المقدمة ص ١١ – ص ١٨ وكتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».

[١٢] – يراجع تفسير سورة الفاتحة ص ٢١ – ص ٢٣ وتفسير مطلع سورة البقرة:ص ٣٩ – ص ٤٠ الجزء الأول مـــن الظلال.

والاستعلاء أمام كل من عداه.فإلى اللّه وحده يتجه بالعبادة،ومن اللّه وحده يتلقى المنـــهج والشريعة والنظام،وعلى اللّه وحده يتوكل ومنه وحده يخاف [١٣] ..ويحققهـــا له،بالمنـــهج الربـــاني،حين يرفـــع اهتماماتـــه ويهـــذب نوازعـــه،ويجمع طاقتـــه للخـــير والبنـــاء والارتقاء،والاستعلاء على نوازع الحيوان،ولذائذ البهيمة وانطلاق الأنعام! [١٤]ولا يـــدرك حقيقة نعمة اللّه في هذا الدين،ولا يقدرها قدرها،من لم يعرف حقيقة الجاهليـــة ومـــن لم يذق ويلاتها – والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه اللّه – فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها ..ويلاتها في التصور والاعتقاد،وويلاتها في واقع الحياة ..هو الذي يحس ويشعر،ويرى ويعلم،ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة اللّه في هذا الدين الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى،وويلات الحيرة والتمـــزق،وويلات الضـــياع والخواء،في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان ..هو الذي يعـــرف ويتذوق نعمة الإيمان.[١٥]

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى،وويلات التخـــبط والاضـــطراب،وويلات التفريط والإفراط في كل أنظمة الحياة الجاهلية،هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام.[١٦]

ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة،يعرفون ويـــدركون ويتـــذوقون هـــذه الكلمات.لأن مدلولاتها كانت متمثلة في حياتهم،في ذات الجيل الذي خوطب بهذا القرآن. كانوا قد ذاقوا الجاهلية ..ذاقوا تصوراتها الاعتقادية .وذاقوا أوضاعها الاجتماعي ة.وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية.وبلوا من هذا كله ما يدركون معه حقيقة نعمة اللّه عليهم بهذا الدين وحقيقة فضل اللّه عليهم ومنته بالإسلام.

---

[١٣] – راجع كتاب «هذا الدين» ص ١٥ – ص ٢٠.«دار الشروق».

[١٤] – راجع تفسير قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً» الجزء الثاني من الظـــلال:ص ٢٠٦ – ص ٢١١.

[١٥] – يراجع فصل:«تيه وركام» في كتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».

[١٦] – يراجع فصل:«تخبط واضطراب» في كتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة».«دار الشروق».

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية وسارهم في الطريق الصاعد،إلى القمة السامقة فإذا هم على القمة ينظرون من عل إلى سائر أمم الأرض من حولهم نظرتهم إلى ماضيهم في جاهليتهم كذلك.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التصورات الاعتقادية حول ربوبية الأصنام،والملائكة،والجن،والكواكب،والأسلاف وسائر هذه الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة لينقلهم إلى أفق التوحيد.إلى أفق الإيمان بإله واحد،قادر قاهر،رحيم ودود،سميع بصير،عليم خبير.عادل كامل.قريب مجيب.لا واسطة بينه وبين أحد والكل له عباد،والكل له عبيد ..ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة،ومن سلطان الرياسة،يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة ..

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في الأوضاع الاجتماعي ة.من الفوارق الطبقية ومن العادات الزرية ومن الاستبداد الذي كان يزاوله كل من هيأ له قدر من السلطان (لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية!).

«فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه في عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها في الجنوب إلى أقصاها في الشمال.وما كان الشاعر النجاشي إلا قادحا مبالغا في القدح حين استضعف مهجوه،لأن:

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

«وما كان حجر بن الحارث إلا ملكا عربيا حين سام بني أسد أن يستعبدهم بالعصا،وتوسل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول:أنت المملك فيهم وهم العبيد إلى القيامة ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة «وكان عمر بن هند ملكا عربيا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار وحين استكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته في داره.

«وكان النعمان بن المنذر ملكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوما للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء.

«وقد قيل عن عزة كليب وائل:إنه سمي بذلك لأنه كان يرمي الكليب حيث يعجبه الصيد،فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه.وقيل:«لا حر بوادي عوف» لأنه من عزته كان لا يأوي بواديه من يملك حرية في جواره.فكلهم أحرار في حكم العبيد ..» [١٧]

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعادات والأخلاق والصلات الاجتماعية ..كان قد التقطهم من سفح البنت الموءودة،والمرأة المنكودة،والخمر والقمار والعلاقات الجنسية الفوضوية،والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتها،والثارات والغارات والنهب والسلب،مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام أي هجوم خارجي جدي،كالذي حدث في عام الفيل من هجوم الأحباش على الكعبة،وتخاذل وخذلان القبائل كلها،هذه القبائل التي كان بأسها بينها شديدا! [١٨]

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة تطل من القمة السامقة على البشرية كلها في السفح،في كل جانب من جوانب الحياة.في جيل واحد.عرف السفح وعرف القمة.عرف الجاهلية وعرف الإسلام.ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول اللّه لهم:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ،وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي،وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» ..

ويقف المؤمن ثالثا:أمام ارتضاء اللّه الإسلام دينا للذين آمنوا ..يقف أمام رعاية اللّه – سبحانه – وعنايته بهذه الأمة،حتى ليختار لها دينها ويرتضيه ..وهو تعبير يشي بحب اللّه لهذه الأمة ورضاه عنها،حتى ليختار لها منهج حياتها ..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقي على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا،يكافىء هذه الرعاية الجليلة ..أستغفر اللّه ..فما يكافىء هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه ..وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة،ومعرفة المنعم ..وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطاع منه،وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه.

---

[١٧] – من كتاب:«حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للأستاذ العقاد ص ١٥٠ ص ١٥١

[١٨] – يراجع تفسير سورة الفيل في الجزء الثلاثين من الظلال وكذلك الجزء الرابع من ص ٥٠١ – ص ٥١٣.

إن ارتضاء اللّه الإسلام دينا لهذه الأمة،ليقتضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيــــار.ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار ..وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل – بله أن يرفض – ما رضيه اللّه له،ليختار لنفسه غير ما اختاره اللّه! ..وإنها – إذن – لجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء،ولا يترك صاحبها يمضي ناجيا أبدا وقد رفض ما ارتضاه له اللّه ..ولقد يترك اللّه الذين لم يتخذوا الإسلام دينا لهم،يرتكبون مــــا يرتكبون ويمهلهم إلى حين ..فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه ..واتخـــذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم اللّه ..فلن يتركهم اللّه أبـــدا ولـــن يمهلهم أبدا،حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون![١٩]



[١٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٢١٧]

لقد لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد في الإسلام في «زاد المعاد»،في الفصل الذي عقده باسم:فَصْلٌ فِي تَرْتِيبِ سِيَاقِ هَدْيِهِ مَعَ الْكُفّارِ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْ حِينِ بُعِثَ إلَى حِينِ لَقِيَ اللّهَ عَزّ وَجَل:

" أَوّلَ مَا أَوْحَى إلَيْهِ رَبّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:أَنْ يَقْرَأَ بِاسْمِ رَبّهِ الّذِي خَلَقَ وَذَلِكَ أَوّلَ نُبُوّتِهِ فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَأْمُرْهُ إذْ ذَاكَ بِتَبْلِيغٍ ثُمّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ { يَا أَيّهَا الْمُدّثّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ } [الْمُدّثّرُ ١،٢] فَنَبّأَهُ بِقَوْلِهِ { اقْرَأْ } وَأَرْسَلَهُ ب { يَا أَيّهَا الْمُدّثّرُ } ثُمّ أَمَرَهُ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ ثُمّ أَنْذَرَ قَوْمَهُ ثُمّ أَنْذَرَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ الْعَرَبِ،ثُمّ أَنْذَرَ الْعَرَبَ قَاطِبَةً ثُمّ أَنْذَرَ الْعَالَمِينَ فَأَقَامَ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً بَعْدَ نُبُوّتِهِ يُنْذِرُ بِالدّعْوَةِ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَلَا جِزْيَةٍ وَيُؤْمَرُ بِالْكَفّ وَالصّبْرِ وَالصّفْحِ.ثُمّ أُذِنَ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ وَأُذِنَ لَهُ فِي الْقِتَالِ ثُمّ أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ قَاتَلَهُ وَيَكُفّ عَمّنْ اعْتَزَلَهُ وَلَمْ يُقَاتِلْهُ ثُمّ أَمَرَهُ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتّى يَكُونَ الدّينُ كُلّهُ لِلّهِ ثُمّ كَانَ الْكُفّارُ مَعَهُ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ أَهْلُ صُلْحٍ وَهُدْنَةٍ وَأَهْلُ حَرْبٍ وَأَهْلُ ذِمّةٍ فَأُمِرَ بِأَنْ يُتِمّ لِأَهْلِ الْعَهْدِ وَالصّلْحِ عَهْدَهُمْ وَأَنْ يُوفِيَ لَهُمْ بِهِ مَا اسْتَقَامُوا عَلَى الْعَهْدِ فَإِنْ خَافَ مِنْهُمْ خِيَانَةً نَبَذَ إلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ وَلَمْ يُقَاتِلْهُمْ حَتّى يُعْلِمَهُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ وَأُمِرَ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ.وَلَمّا نَزَلَتْ (سُورَةُ بَرَاءَةٌ) نَزَلَتْ بِبَيَانِ حُكْمِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ كُلّهَا،فَأَمَرَهُ فِيهَا أَنْ " يُقَاتِلَ عَدُوّهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ أَوْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَأَمَرَهُ فِيهَا بِجِهَادِ الْكُفّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ فَجَاهَدَ الْكُفّارَ بِالسّيْفِ وَالسّنَانِ وَالْمُنَافِقِينَ بِالْحُجّةِ وَاللّسَانِ .

وَأَمَرَهُ فِيهَا بِالْبَرَاءَةِ مِنْ عُهُودِ الْكُفّارِ وَنَبْذِ عُهُودِهِمْ إلَيْهِمْ وَجَعَلَ أَهْلَ الْعَهْدِ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ قِسْمًا أَمَرَهُ بِقِتَالِهِمْ وَهُمْ الّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَهُ وَلَمْ يَسْتَقِيمُوا لَهُ فَحَارَبَهُمْ وَظَهَرَ عَلَيْهِمْ.وَقِسْمًا لَهُمْ عَهْدٌ مُؤَقّتٌ لَمْ يَنْقُضُوهُ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْهِ فَأَمَرَهُ أَنْ يُتِمّ لَهُمْ عَهْدَهُمْ إلَى مُدّتِهِمْ.وَقِسْمًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ وَلَمْ يُحَارِبُوهُ أَوْ كَانَ لَهُمْ عَهْدٌ مُطْلَقٌ فَأُمِرَ أَنْ يُؤَجّلَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِذَا انْسَلَخَتْ قَاتَلَهُمْ وَهِيَ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ {

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } [التّوْبَةُ ٢] وَهِيَ الْحُرُمُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } [التّوْبَةُ ٥] فَالْحُرُمُ هَا هُنَا:هِيَ أَشْهُرُ التّسْيِيرِ أَوّلُهَا يَوْمُ الْأَذَانِ وَهُوَ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ ذِي الْحِجّةِ وَهُوَ يَوْمُ الْحَجّ الْأَكْبَرِ الّذِي وَقَعَ فِيهِ التّأْذِينُ بِذَلِكَ وَآخِرُهَا الْعَاشِرُ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ وَلَيْسَتْ هِيَ الْأَرْبَعَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِهِ { إِنّ عِدّةَ الشّهُورِ عِنْدَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } [التّوْبَةُ ٣٦] فَإِنّ تِلْكَ وَاحِدٌ فَرْدٌ وَثَلَاثَةٌ سَرْدٌ رَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجّةِ وَالْمُحَرّمُ.وَلَمْ يُسَيّرْ الْمُشْرِكِينَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فَإِنّ هَذَا لَا يُمْكِنُ لِأَنّهَا غَيْرُ مُتَوَالِيَةٍ وَهُوَ إنّمَا أَجّلَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ثُمّ أَمَرَهُ بَعْدَ انْسِلَاخِهَا أَنْ يُقَاتِلَهُمْ فَقَتَلَ النّاقِضَ لِعَهْدِهِ وَأَجّلَ مَنْ لَا عَهْدَ لَهُ أَوْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَأَمَرَهُ أَنْ يُتِمّ لِلْمُوفِي بِعَهْدِهِ عَهْدَهُ إلَى مُدّتِهِ فَأَسْلَمَ هَؤُلَاءِ كُلّهُمْ وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى كُفْرِهِمْ إلَى مُدّتِهِمْ وَضَرَبَ عَلَى أَهْلِ الذّمّةِ الْجِزْيَةَ.فَاسْتَقَرّ أَمْرُ الْكُفّارِ مَعَهُ بَعْدَ نُزُولِ بَرَاءَةٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ مُحَارِبِينَ لَهُ وَأَهْلِ عَهْدٍ وَأَهْلِ ذِمّةٍ ثُمّ آلَتْ حَالُ أَهْلِ الْعَهْدِ وَالصّلْحِ إلَى الْإِسْلَامِ فَصَارُوا مَعَهُ قِسْمَيْنِ مُحَارِبِينَ وَأَهْلَ ذِمّةٍ وَالْمُحَارِبُونَ لَهُ خَائِفُونَ مِنْهُ فَصَارَ أَهْلُ الْأَرْضِ مَعَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ بِهِ وَمُسَالِمٌ لَهُ آمِنٌ وَخَائِفٌ مُحَارِبٌ.وَأَمّا سِيرَتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ فَإِنّهُ أُمِرَ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ وَيَكِلَ سَرَائِرَهُمْ إلَى اللّهِ وَأَنْ يُجَاهِدَهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْحُجّةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ وَيُغْلِظَ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يُبَلّغَ بِالْقَوْلِ الْبَلِيغِ إلَى نُفُوسِهِمْ وَنَهَاهُ أَنْ يُصَلّيَ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يَقُومَ عَلَى قُبُورِهِمْ وَأَخْبَرَ أَنّهُ إنْ اسْتَغْفَرَ لَهُمْ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ فَهَذِهِ سِيرَتُهُ فِي أَعْدَائِهِ مِنْ الْكُفّارِ وَالْمُنَافِقِينَ .

وَأَمّا سِيرَتُهُ فِي أَوْلِيَائِهِ وَحِزْبِهِ،فَأَمَرَهُ أَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ مَعَ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَأَلّا تَعْدُوَ عَيْنَاهُ عَنْهُمْ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ وَيُشَاوِرَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَأَنْ يُصَلّيَ عَلَيْهِمْ.وَأَمَرَهُ بِهَجْرِ مَنْ عَصَاهُ وَتَخَلّفَ عَنْهُ حَتّى يَتُوبَ وَيُرَاجِعَ طَاعَتَهُ كَمَا هَجَرَ الثّلَاثَةَ الّذِينَ.خُلّفُوا.وَأَمَرَهُ أَنْ يُقِيمَ الْحُدُودَ عَلَى مَنْ أَتَى مُوجِبَاتِهَا مِنْهُمْ وَأَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ شَرِيفُهُمْ وَدَنِيئُهُمْ.وَأَمَرَهُ فِي دَفْعِ عَدُوّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ بِأَنْ يَدْفَعَ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَيُقَابِلَ إسَاءَةَ مَنْ أَسَاءَ إلَيْهِ بِالْإِحْسَانِ وَجَهْلَهُ بِالْحِلْمِ وَظُلْمَهُ بِالْعَفْوِ وَقَطِيعَتَهُ بِالصّلَةِ وَأَخْبَرَهُ أَنّهُ إنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَادَ عَدُوّهُ كَأَنّهُ وَلِيّ حَمِيمٌ.وَأَمَرَهُ فِي دَفْعِهِ عَدُوّهِ

مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنّ بِالاسْتِعَاذَةِ بِاَللّهِ مِنْهُمْ وَجَمَعَ لَهُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْ الْقُرْآنِ فِي (سُورَةِ الْأَعْرَافِ) و (الْمُؤْمِنُونَ) فَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمّا يَنْزَغَنّكَ مِنَ الشّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الْأَعْرَافِ ١٩٩ - ٢٠٠] فَأَمَرَهُ بِاتّقَاءِ شَرّ الْجَاهِلِينَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَبِاتّقَاءِ شَرّ الشّيْطَانِ بِالاسْتِعَاذَةِ مِنْهُ وَجَمَعَ لَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَالشّيَمِ كُلّهَا،فَإِنّ وَلِيّ الْأَمْرِ لَهُ مَعَ الرّعِيّةِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ فَإِنّهُ لَا بُدّ لَهُ مِنْ حَقّ عَلَيْهِمْ يَلْزَمُهُمْ الْقِيَامُ بِهِ وَأَمْرٍ يَأْمُرُهُمْ بِهِ وَلَا بُدّ مِنْ تَفْرِيطٍ وَعُدْوَانٍ يَقَعُ مِنْهُمْ فِي حَقّهِ فَأُمِرَ بِأَنْ يَأْخُذَ مِنْ الْحَقّ الّذِي عَلَيْهِمْ مَا طَوّعَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ وَسَمَحَتْ بِهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَشُقّ وَهُوَ الْعَفْوُ الّذِي لَا يَلْحَقُهُمْ بِبَذْلِهِ ضَرَرٌ وَلَا مَشَقّةٌ وَأُمِرَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالْعُرْفِ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ الّذِي تَعْرِفُهُ الْعُقُولُ السّلِيمَةُ وَالْفِطَرُ الْمُسْتَقِيمَةُ وَتُقِرّ بِحُسْنِهِ وَنَفْعِهِ وَإِذَا أَمَرَ بِهِ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَيْضًا لَا بِالْعُنْفِ وَالْغِلْظَةِ.وَأَمَرَهُ أَنْ يُقَابِلَ جَهْلَ الْجَاهِلِينَ مِنْهُمْ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ دُونَ أَنْ يُقَابِلَهُ بِمِثْلِهِ فَبِذَلِكَ يَكْتَفِي شَرّهُمْ.وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ { قُلْ رَبّ إِمّا تُرِيَنّي مَا يُوعَدُونَ رَبّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظّالِمِينَ وَإِنّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ادْفَعْ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ السّيّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُلْ رَبّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبّ أَنْ يَحْضُرُونِ } [الْمُؤْمِنُونَ ٩٣ - ٩٧] وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ حم فُصّلَتْ { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السّيّئَةُ ادْفَعْ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنّهُ وَلِيّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقّاهَا إِلّا الّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقّاهَا إِلّا ذُو حَظّ عَظِيمٍ وَإِمّا يَنْزَغَنّكَ مِنَ الشّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ } [فُصّلَتْ ١٣٤] فَهَذِهِ سِيرَتُهُ مَعَ أَهْلِ الْأَرْضِ إنْسِهِمْ وَجِنّهِمْ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ . [٢٠]..

وقال أيضاً:" فَصْلٌ [الْإِذْنُ بِالْقِتَالِ]

فَلَمّا اسْتَقَرّ رَسُولُ اللّهِ - ﷺ- بِالْمَدِينَةِ وَأَيّدَهُ اللّهُ بِنَصْرِهِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَنْصَارِ وَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ وَالْإِحَنِ الّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَتْهُ أَنْصَارُ اللّهِ وَكَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ مِنْ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ وَبَذَلُوا نُفُوسَهُمْ دُونَهُ وَقَدّمُوا مَحَبّتَهُ عَلَى مَحَبّةِ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْأَزْوَاجِ

---

[٢٠] - زاد المعاد - (ج ٣ / ص ١٤٣)

وَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ وَالْيَهُودُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ وَشَمَّرُوا لَهُمْ عَنْ سَاقِ الْعَدَاوَةِ وَالْمُحَارَبَةِ وَصَاحُوا بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ حَتَّى قَوِيَتْ الشَّوْكَةُ فَقَالَ تَعَالَى:{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } [الْحَجّ ٣٩].وَقَدْ قَالَتْ طَائِفَةٌ إنَّ هَذَا الْإِذْنَ كَانَ بِمَكَّةَ وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ وَهَذَا غَلَطٌ لِوُجُوهِ أَحَدُهَا:أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْذَنْ بِمَكَّةَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ وَلَا كَانَ لَهُمْ شَوْكَةٌ يَتَمَكَّنُونَ بِهَا مِنْ الْقِتَالِ بِمَكَّةَ.الثَّانِي:أَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِذْنَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ وَإِخْرَاجُهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ فَإِنَّهُ قَالَ { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ } [الْحَجّ ٤٠] وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُهَاجِرُونَ.الثَّالِثُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } [الْحَجّ ١٩] نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ تَبَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ.الرَّابِعُ أَنَّهُ قَدْ خَاطَبَهُمْ فِي آخِرِهَا بِقَوْلِهِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَالْخِطَابُ بِذَلِكَ كُلِّهِ مَدَنِيٌّ فَأَمَّا الْخِطَابُ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ فَمُشْتَرَكٌ.الْخَامِسُ أَنَّهُ أَمَرَ فِيهَا بِالْجِهَادِ الَّذِي يَعُمُّ الْجِهَادَ بِالْيَدِ وَغَيْرِهِ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ الْمُطْلَقِ إنَّمَا كَانَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ فَأَمَّا جِهَادُ الْحُجَّةِ فَأَمَرَ بِهِ فِي مَكَّةَ بِقَوْلِهِ { فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ } أَيْ بِالْقُرْآنِ { جِهَادًا كَبِيرًا } [الْفُرْقَانُ:٥٢] فَهَذِهِ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ وَالْجِهَادُ فِيهَا هُوَ التَّبْلِيغُ وَجِهَادُ الْحُجَّةِ .

وَأَمَّا الْجِهَادُ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي (سُورَةِ الْحَجِّ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْجِهَادُ بِالسَّيْفِ

السَّادِسُ أَنَّ الْحَاكِمَ رَوَى فِي " مُسْتَدْرَكِهِ " عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ – ﷺ – مِنْ مَكَّةَ،قَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ،لَيَهْلِكُنَّ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} (٣٩) سورة الحج،قَالَ:وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ ".وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ " الصَّحِيحَيْنِ "[٢١]

وَسِيَاقُ السُّورَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِيهَا الْمَكِّيَّ وَالْمَدَنِيَّ فَإِنَّ قِصَّةَ إلْقَاءِ الشَّيْطَانِ فِي أُمْنِيَّةِ الرَّسُولِ مَكِّيَّةٌ[٢٢] وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

---

[٢١] – المستدرك للحاكم (٢٩٦٨) صحيح

[٢٢] – هي قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (٥٢) سورة الحج

ثُمّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالَ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَنْ قَاتَلَهُمْ دُونَ مَنْ لَمْ يُقَاتِلْهُمْ فَقَالَ { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّه الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ } [الْبَقَرَةُ ١٩٠] .

ثُمّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ كَافّةً وَكَانَ مُحَرّمًا ثُمّ مَأْذُونًا بِهِ ثُمّ مَأْمُورًا بِهِ لِمَنْ بَدَأَهُمْ بِالْقِتَالِ ثُمّ مَأْمُورًا بِهِ لِجَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ إمّا فَرْضُ عَيْنٍ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ أَوْ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَى الْمَشْهُورِ .

وَالتّحْقِيقُ أَنّ جِنْسَ الْجِهَادِ فَرْضُ عَيْنٍ إمّا بِالْقَلْبِ وَإِمّا بِاللّسَانِ وَإِمّا بِالْمَالِ وَإِمّا بِالْيَدِ فَعَلَى كُلّ مُسْلِمٍ أَنْ يُجَاهِدَ بِنَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ .

أَمّا الْجِهَادُ بِالنّفْسِ فَفَرْضُ كِفَايَةٍ وَأَمّا الْجِهَادُ بِالْمَالِ فَفِي وُجُوبِهِ قَوْلَانِ وَالصّحِيحُ وُجُوبُهُ لِأَنّ الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ بِهِ وَبِالنّفْسِ فِي الْقُرْآنِ سَوَاءٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [التّوْبَةُ ٤١] وَعَلّقَ النّجَاةَ مِنْ النّارِ بِهِ وَمَغْفِرَةَ الذّنْبِ وَدُخُولَ الْجَنّةِ فَقَالَ { يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [الصّفّ ١٥]

وَأَخْبَرَ أَنّهُمْ إنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَعْطَاهُمْ مَا يُحِبّونَ مِنْ النّصْرِ وَالْفَتْحِ الْقَرِيبِ فَقَالَ { وَأُخْرَى تُحِبّونَهَا } [الصّفّ ١٢] أَيْ وَلَكُمْ خَصْلَةٌ أُخْرَى تُحِبّونَهَا فِي الْجِهَادِ وَهِيَ { نَصْرٌ مِنَ اللّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ } وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنّهُ { {..اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١١١) سورة التوبة.

وَأَعَاضَهُمْ عَلَيْهَا الْجَنّةَ وَأَنّ هَذَا الْعَقْدَ وَالْوَعْدَ قَدْ أَوْدَعَهُ أَفْضَلَ كُتُبِهِ الْمُنَزّلَةِ مِنْ السّمَاءِ وَهِيَ التّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ ثُمّ أَكّدَ ذَلِكَ بِإِعْلَامِهِمْ أَنّهُ لَا أَحَدَ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ثُمّ أَكّدَ ذَلِكَ بِأَنْ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِهِمْ الّذِي عَاقَدُوهُ عَلَيْهِ ثُمّ أَعْلَمَهُمْ أَنّ

ذَلكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.فَلْيَتَأَمّلْ الْعَاقدُ مَعَ رَبّه عَقْدَ هَذَا التّبَايُع مَا أَعْظَمَ خَطَرَهُ وَأَجَلّهُ فَــإِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ هُوَ الْمُشْتَري وَالثّمَنُ جَنّاتُ النّعيم وَالْفَوْزُ برضَاهُ وَالتّمَتّعُ برُؤْيَته هُنَاكَ.وَالّذي جَرَى عَلَى يَده هَذَا الْعَقْدُ أَشْرَفُ رُسُله وَأَكْرَمُهُمْ.عَلَيْه منْ الْمَلَائكَة وَالْبَشَر.

وَإِنّ سلْعَةً هَذَا شَأْنُهَا لَقَدْ هُيّئَتْ لأَمْرٍ عَظيمٍ وَخَطْبٍ جَسيمٍ

قَدْ هَيّئُوك لأَمْرٍ لَوْ فَطنْتَ لَه فَارْبَأْ بنَفْسكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الْهَمَلِ

مَهْرُ الْمُحبّة وَالْجَنّة بَذْلُ النّفْسِ وَالْمَالِ لمَالكهمَا الّذي اشْتَرَاهُمَا منَ الْمُؤْمنينَ فَمَا للْجَبَان الْمُعْرضِ الْمُفْلسِ وَسَوْمِ هذه السّلْعَة بَاللّه مَا هَزَلَتْ فَيَسْتَامَهَا الْمُفْلسُونَ وَلَــا كَسَــدَتْ فَيَبيعَهَا بالنّسيئَة الْمُعْسرُونَ،لَقَدْ أُقيمَتْ للْعَرْضِ في سُوق مَنْ يُريدُ فَلَمْ يَرْضَ رَبّهَا لَهَا بثَمَنٍ دُونَ بَذْلِ النّفُوسِ فَتَأَخّرَ الْبَطّالُونَ،وَقَامَ الْمُحبّونَ يَنْتَظرُونَ أَيّهُمْ يَصْلُحُ أَنْ يَكُــونَ نَفْسُــهُ الثّمَنَ فَدَارَت السّلْعَةُ بَيْنَهُمْ ووَقَعَتْ في يَد { أَذلّةٍ عَلَى الْمُؤْمنينَ أَعزّةٍ عَلَى الْكَافرِينَ } [الْمَائدَةُ ٥٤] .

ولَمّا كَثُرَ الْمُدّعُونَ للْمَحَبّة طُولبُوا بإقَامَة الْبَيّنَة عَلَى صحّة الدّعْوَى فَلَــوْ يُعْطَــى النّــاسُ بدَعْوَاهُمْ لَادّعَى الْخَليّ حرْفَةَ الشّجيّ فَتَنَوّعَ الْمُدّعُونَ في الشّهُود فَقيلَ لَا تَثْبُــتُ هَــذه الدّعْوَى إلّا ببَيّنَة {قُلْ إن كُنتُمْ تُحبُّونَ اللّهَ فَاتَّبعُوني يُحْببْكُمُ اللّهُ وَيَغْفرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ } (٣١) سورة آل عمران،فَتَأَخّرَ الْخَلْقُ كُلّهُمْ وَثَبَتَ أَتْبَاعُ الرّسُول في أَفْعَاله وَأَقْوَاله وَقيلَ لَا تُقْبَلُ الْعَدَالَةُ إلّا بتَزْكيَة { يُجَاهدُونَ في سَبيلِ اللّه وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائمٍ } [الْمَائدَةُ ٥٤] فَتَأَخّرَ أَكْثَرُ الْمُدّعينَ للْمَحَبّة وَقَامَ الْمُجَاهدُونَ فَقيــلَ لَهُــمْ:إنّ نُفُــوسَ الْمُحبّينَ وَأَمْوَالَهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ فَسَلّمُوا مَا وَقَعَ عَلَيْه الْعَقْدُ فَإنّ { اللّهَ اشْتَرَى منَ الْمُــؤْمنينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتلُونَ في سَبيلِ اللّه فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْه حَقًّا في التَّوْرَاة وَالإنجيلِ وَالْقُرْآن وَمَنْ أَوْفَى بعَهْده منَ اللّه فَاسْتَبْشرُواْ ببَيْعكُمُ الَّذي بَــايَعْتُم بــه وَذَلكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ} (١١١) سورة التوبة.

وَعَقْدُ التّبَايُع يُوجبُ التّسْليمَ منَ الْجَانبَيْنِ فَلَمّا رَأَى التّجّارُ عَظَمَةَ الْمُشْتَري وَقَدْرَ الــثّمَنِ وَجَلَالَةَ قَدْرِ مَنْ جَرَى عَقْدُ التّبَايُع عَلَى يَدْيه وَمقْدَارَ الْكتَاب الّذي أُثْبتَ فيه هَــذَا الْعَقْــدُ عَرَفُوا أَنّ للسّلْعَة قَدْرًا وَشَأْنًا لَيْسَ لغَيْرهَا منْ السّلَعِ فَرَأَوْا منَ الْخُسْــرَان الْبَــيّن وَالْغَــبْنِ

الْفَاحِشِ أَنْ يَبِيعُوهَا بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهَا وَشَهْوَتُهَا وَتَبْقَى تَبِعَتُهَا وَحَسْرَتُهَا فَإِنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ مَعْدُودٌ فِي جُمْلَةِ السُّفَهَاءِ فَعَقَدُوا مَعَ الْمُشْتَرِي بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ رِضًى وَاخْتِيَارًا مِنْ غَيْرِ ثُبُوتِ خِيَارٍ وَقَالُوا:وَاَللَّه لَا نَقِيلُكَ وَلَا نَسْتَقِيلُكَ [23]

فَلَمَّا تَمَّ الْعَقْدُ وَسَلَّمُوا الْمَبِيعَ قِيلَ لَهُمْ قَدْ صَارَتْ أَنْفُسُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ لَنَا وَالْآنَ فَقَدْ رَدَدْنَاهَا عَلَيْكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ وَأَضْعَافَ أَمْوَالِكُمْ مَعَهَا { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } [آلُ عِمْرَانَ ٦٩] لَمْ نَبْتَعْ مِنْكُمْ نُفُوسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ طَلَبًا لِلرِّبْحِ عَلَيْكُمْ بَلْ لِيَظْهَرَ أَثَرُ الْجُودِ وَالْكَرَمِ فِي قَبُولِ الْمَعِيبِ وَالْإِعْطَاءِ عَلَيْهِ أَجَلَّ الْأَثْمَانِ ثُمَّ جَمَعْنَا لَكُمْ بَيْنَ الثَّمَنِ وَالْمُثَمَّنِ .

تَأَمَّلْ قِصَّةَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ " وَقَدْ اشْتَرَى مِنْهُ – ﷺ- بَعِيرَهُ ثُمَّ وَفَّاهُ الثَّمَنَ وَزَادَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ الْبَعِيرَ وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ قُتِلَ مَعَ النَّبِيِّ – ﷺ- فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ فَذَكَّرَهُ بِهَذَا الْفِعْلِ حَالَ أَبِيهِ مَعَ اللَّهِ وَأَخْبَرَهُ أَنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُ وَكَلَّمَهُ كِفَاحًا [24]

وَقَالَ يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ " [25]

---

[23] – عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ، قَالَ:"نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ " { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١١١) سورة التوبة،فَكَبَّرَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ثَانِيًا طَرَفَيْ رِدَائِهِ عَلَى أَحَدِ عَاتِقَيْهِ، فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ؟ فَقَالَ:نَعَمْ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ:بَيْعٌ رَبِيحٌ، لا نَقِيلُ وَلا نَسْتَقِيلُ".تفسير ابن أبي حاتم – (٧ / ٤٢٣) (١٠٨٣٥) صحيح

[24] – عن طَلْحَةَ بْنَ خِرَاشٍ،قَالَ:سَمِعْتُ جَابِرًا،يَقُولُ:لَقِيَنِي النَّبِيُّ – ﷺ –،فَقَالَ لِي:يَا جَابِرُ،مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا ؟ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،اسْتُشْهِدَ أَبِي،وَتَرَكَ عِيَالاً وَدَيْنًا،فَقَالَ:أَلاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ ؟ قُلْتُ:بَلَى،يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ،وَإِنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا،فَقَالَ:يَا عَبْدِي،تَمَنَّ أُعْطِكَ،قَالَ:تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ قَتْلَةً ثَانِيَةً،قَالَ اللَّهُ:إِنِّي قَضَيْتُ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ،وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} .صحيح ابن حبان – (١٥ / ٤٩٠) (٧٠٢٢) صحيح

[25] – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ،سَمِعَ جَابِرًا،قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:يَا جَابِرُ،عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ،فَقَالَ لَهُ:تَمَنَّ عَلَى اللَّهِ فَقَالَ:أَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلُ مَرَّةً أُخْرَى قَالَ:إِنِّي قَضَيْتُ أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ "مسند أبي يعلى الموصلي(٢٠٠٢) صحيح لغيره

فَسُبْحَانَ مَنِ الْمَبِيعَ عَلَى عَيْبِهِ وَأَعَاضَ عَلَيْهِ أَجَلّ الْأَثْمَان وَاشْتَرَى عَبْدَهُ مِنْ نَفْسِــهِ بِمَالِــهِ وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ الثّمَنِ وَالْمُثَمّنِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَدَحَهُ بِهَذَا الْعَقْدِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ الّذِي وَفّقَهُ لَــهُ وَشَاءَهُ مِنْهُ .

فَحَيّهَلَا إِنْ كُنْتَ ذَا هِمّةٍ فَقَدْ حَدَا بِكَ حَادِي الشّوْقِ فَاطْوِ الْمَرَاحِلَا
وَقُلْ لِمُنَادِي حُبّهِمْ وَرِضَاهُمْ إِذَا مَا دَعَا لَبّيْكَ أَلْفًا كَوَامِلَا
وَلَا تَنْظُرْ الْأَطْلَالَ مِنْ دُونِهِمْ فَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى الْأَطْلَالِ عُدْنَ حَوَائِلَا
وَلَا تَنْتَظِرْ بِالسّيْرِ رِفْقَةَ قَاعِدٍ وَدَعْهُ فَإِنّ الشّوْقَ يَكْفِيكَ حَامِلَا
وَخُذْ مِنْهُمْ زَادًا إِلَيْهِمْ وَسِرْ عَلَى طَرِيقِ الْهُدَى وَالْحُبّ تُصْبِحْ وَاصِلًا
وَأَحْيِي بِذِكْرَاهُمْ شِرَاكَ إِذَا دَنَتْ رِكَابُكَ فَالذّكْرَى تُعِيدُكَ عَامِلَا
وَأَمّا تَخَافَنّ الْكَلَالَ فَقُلْ لَهَا أَمَامَكِ وِرْدُ الْوَصْلِ فَابْغِي الْمَنَاهِلَا
وَخُذْ قَبَسًا مَنْ نُورِهِمْ ثُمّ سِرْ بِهِ فَنُورُهُمْ يَهْدِيكَ لَيْسَ الْمَشَاعِلَا
وَحَيّ عَلَى وَادِي الْأَرَاكِ فَقِلْ بِهِ عَسَاكَ تَرَاهُمْ ثَمّ إِنْ كُنْتَ قَائِلَا
وَإِلّا فَفِي نَعْمَانَ عِنْدِي مُعَرّفُ الْ أَحِبّةِ فَاطْلُبْهُمْ إِذَا كُنْتَ سَائِلَا
وَإِلّا فَفِي جَمْعٍ بِلَيْلَتِهِ فَإِنْ تَفُتْ فَمِنًى يَا وَيْحَ مَنْ كَانَ غَافِلًا
وَحَيّ عَلَى جَنّاتِ عَدْنٍ فَإِنّهَا مَنَازِلُكَ الْأُولَى بِهَا كُنْتَ نَازِلَا
وَلَكِنْ سَبَاكَ الْكَاشِحُونَ لِأَجْلِ ذَا وَقَفْتَ عَلَى الْأَطْلَالِ تَبْكِي الْمَنَازِلَا
وَحَيّ عَلَى يَوْمِ الْمَزِيدِ بِجَنّةِ الْ خُلُودِ فَجُدْ بِالنّفْسِ إِنْ كُنْتَ بَاذِلَا
فَدَعْهَا رُسُومًا دَارِسَاتٍ فَمَا بِهَا مَقِيلٌ وَجَاوِزْهَا فَلَيْسَتْ مَنَازِلَا
رُسُومًا عَفَتْ يَنْتَابُهَا الْخَلْقُ كَمْ بِهَا قَتِيلٌ وَكَمْ فِيهَا لِذَا الْخَلْقِ قَاتِلَا
وَخُذْ يَمْنَةً عَنْهَا عَلَى الْمَنْهَجِ الّذِي عَلَيْهِ سَرَى وَفْدُ الْأَحِبّةِ آهِلَا
وَقُلْ سَاعِدِي يَا نَفْسُ بِالصّبْرِ سَاعَةً فَعِنْدَ اللّقَا ذَا الْكَدّ يُصْبِحُ زَائِلَا
فَمَا هِيَ إِلّا سَاعَةٌ ثُمّ تَنْقَضِي وَيُصْبِحُ ذُو الْأَحْزَانِ فَرْحَانَ جَاذِلَا

لَقَدْ حَرّكَ الدّاعِي إِلَى اللّهِ وَإِلَى دَارِ السّلَامِ النّفُوسَ الْأَبِيّةَ وَالْهِمَمَ الْعَالِيَةَ وَأَسْمَعَ مُنَــادِي الْإِيمَانِ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ وَأَسْمَعَ اللّهُ مَنْ كَانَ حَيّا فَهَزّهُ السّمَاعُ إِلَى مَنَازِلِ الْــأَبْرَارِ

وَحْدًا بِهِ فِي طَرِيقِ سَيْرِهِ فَمَا حَطَّتْ بِهِ رِحَالُهُ إِلّا بِدَارِ الْقَرَارِ فَقَالَ ﷺ:« انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ إِيمَانٌ بِى وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِى أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ،أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ،وَلَوَدِدْتُ أَنِّى أُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ »[٢٦] .

وَقَالَ ﷺ:« مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِى سَبِيلِهِ – كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ،وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِى سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ »[٢٧]

وَقَالَ ﷺ:« غَدْوَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ،لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا،وَلَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا،وَلَنَصِيفُهَا – يَعْنِى الْخِمَارَ – خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »[٢٨] .

وَقَالَ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ:أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي خَرَجَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِي،ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي،ضَمِنْتُ لَهُ أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ،وَإِنْ قَبَضْتُهُ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ وَأَرْحَمَهُ،وَأُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ."[٢٩]

وَقَالَ ﷺ:جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُنَجِّي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ."[٣٠]

وَقَالَ ﷺ:أَنَا زَعِيمٌ،وَالزَّعِيمُ الْحَمِيلُ لِمَنْ آمَنَ بِي وَأَسْلَمَ،وَهَاجَرَ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ،وَبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ،وَأَنَا زَعِيمٌ لِمَنْ آمَنَ بِي وَأَسْلَمَ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِبَيْتٍ فِي

---

[٢٦] – صحيح البخارى- المكنز – (٣٦)

[٢٧] – صحيح البخارى- المكنز – (٢٧٨٧)

[٢٨] – صحيح البخارى- المكنز – (٦٥٦٧ و٦٥٦٨)

[٢٩] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٢ / ٤٩٤)(٥٩٧٧- صحيح

[٣٠] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٧ / ٥٤٠)(٢٢٦٨٠) ٢٣٠٥٦- حسن لغيره

رَبَضِ الْجَنَّةِ،وَبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ،وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى غُرَفِ الْجَنَّةِ،فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَــدَعْ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا،وَلاَ مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا،يَمُوتُ حَيْثُ شَاءَ أَنْ يَمُوتَ"[31].

وَقَالَ ﷺ:« مَنْ قَاتَلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً فَإِنَّهَا تَجِىءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ لَوْنُهَا الزَّعْفَرَانُ وَرِيحُهَا كَالْمِسْكِ »[32].

وَقَالَ ﷺ:" إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ بَيْنَ الــدَّرَجَتَيْنِ،كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ،فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ،فَهُوَ أَوْسَــطُ الْجَنَّــةِ،وَهُوَ أَعْلَــى الْجَنَّةِ،وَفَوْقَهُ الْعَرْشُ،وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ."[33]

وَقَالَ ﷺ لأَبِي سَعِيدٍ:« يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِىَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ».قَالَ فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ قَالَ أَعِدْهَا عَلَىَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ.فَفَعَلَ ثُمَّ قَالَ رَسُــولُ اللَّهِ – ﷺ – « وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِى الْجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ».قَالَ وَمَا هِىَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الْجِهَــادُ فِــى سَبِيلِ اللَّهِ ».[34].

وَقَالَ ﷺ:« مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ نُودِىَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَــا عَبْــدَ اللَّهِ،هَــذَا خَيْرٌ.فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ،وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ،وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ،وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّــدَقَةِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ ».فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ – رضى الله عنه – بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى يَــا رَسُــولَ

---

[31] - صحيح ابن حبان - (10 / 480) (4619) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:الزَّعِيمُ لُغَةً:أَهْلُ الْمَدِينَةِ،وَالْحَمِيلُ لُغَةً:أَهْلُ مِصْرَ،وَالْكَفِيلُ لُغَةً:أَهْلُ الْعِرَاقِ،وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ اللَّفْظَــةُ الزَّعِيمُ الْحَمِيلُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ وَهْبٍ أُدْرِجَ فِي الْخَبَرِ.

[32] – سنن الترمذى- المكتر - (1758) وقال:هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.-الفواق:قدر ما بين الحلبتين من الراحة

[33] – صحيح ابن حبان - (10 / 471) (4611) وصحيح البخارى- المكتر - (2790)

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:قَوْلُهُ ﷺ:فَهُوَ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ يُرِيدُ بِهِ أَنَّ الْفِرْدَوْسَ فِي وَسَطِ الْجِنَّانِ،فِي الْعَرْضِ،وَقَوْلُهُ وَهُوَ أَعْلَى الْجَنَّةِ يُرِيدُ بِهِ:فِي الارْتِفَاعِ.

[34] – سنن النسائي- المكتر - (3144) صحيح

اللَّه،مَا عَلَى مَنْ دُعِىَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ،فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا قَالَ « نَعَمْ.وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » [٣٥].

وَقَالَ ﷺ:« مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبِسَبْعِمِائَةٍ وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ أَوْ عَادَ مَرِيضاً أَوْ مَازَ أَذًى فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا وَمَنِ ابْتَلاَهُ اللَّهُ بِبَلاَءٍ فِى جَسَدِهِ فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ »[٣٦].

وَذَكَرَ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ « مَنْ أَرْسَلَ بِنَفَقَةٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأَقَامَ فِى بَيْتِهِ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ وَمَنْ غَزَا بِنَفْسِهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْفَقَ فِى وَجْهِ ذَلِكَ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ».ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ).[٣٧].

وَقَالَ ﷺ:" مَنْ أَعَانَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللهِ،أَوْ غَارِمًا فِي عُسْرَتِهِ،أَوْ مُكَاتَبًا فِي رَقَبَتِهِ،أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ "[٣٨] .

وَقَالَ ﷺ:« مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » [٣٩].

وقَالَ أَبُو الْمُصَبِّحِ الْمَقْرَائِيُّ،قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ بِأَرْضِ الرُّومِ فِي طَائِفَةٍ عَلَيْهَا مَالِكُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْخَثْعَمِيُّ إِذْ مَرَّ مَالِكٌ بِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يَمْشِي يَقُودُ بَغْلاً لَهُ،فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ:أَيْ أَبَا عَبْدِ اللهِ ارْكَبْ فَقَدْ حَمَلَكَ اللَّهُ،فَقَالَ جَابِرٌ:أُصْلِحُ دَابَّتِي وَأَسْتَغْنِي عَنْ قَوْمِي،وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ،فَأَعْجَبَ مَالِكًا قَوْلُهُ فَسَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ حَيْثُ يُسْمِعُهُ الصَّوْتَ نَادَاهُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا

---

[٣٥] – صحيح البخارى– المكتر – (١٨٩٧) وصحيح مسلم– المكتر – (٢٤١٨)

الضرورة:الضرر أى لا يزاحم بعضهم بعضا –زوجين:أي:صنفين:والزوج:الصنف من الأشياء والنوع منها والزوج الذي معه آخر من جنسه مثله.– أي فل:منقوص من «فلان» كأنه قال:يافلان:قال الأزهري:ليس ترخيم «فلان» ولكنها كلمة على حدة ،فبنو أسد يوقعونها على الواحد والأثنين والجمع والمؤنث بلفظ واحد ،وغيرهم ،يثني ويجمع ويؤنث، وقال الجوهري:حذفت الألف والنون لغير ترخيم ،ولو كان ترخيما ،لقال:يا فلا.–التو:الهلاك.جامع الأصول في أحاديث الرسول – (٩ / ٥٢٣)

[٣٦] – مسند أحمد – المكتر – (١٧١٢) صحيح

الجنة:الوقاية –الحطة:أى تحط عنه خطاياه وذنوبه –ماز:نحى وأزال

[٣٧] – سنن ابن ماجه– المكتر – (٢٨٦٦) ضعيف

[٣٨] – شعب الإيمان – (٦ / ١٣٣) (٣٩٧٢) حسن

[٣٩] – صحيح البخارى– المكتر – (٩٠٧)

أَبَا عَبْدِ اللهِ ارْكَبْ،فَقَدْ حَمَلَكَ اللَّهُ،فَعَرَفَ جَابِرٌ الَّذِي أَرَادَ بِرَفْعِ صَوْتِهِ،وَقَالَ:أُصْلِحُ دَابَّتِي وَأَسْتَغْنِي عَنْ قَوْمِي،وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ،فَوَثَبَ النَّاسُ عَنْ دَوَابِّهِمْ،فَمَا رَأَيْنَا يَوْمًا أَكْثَرَ مَاشِيًا مِنْهُ."[٤٠]

وَقَالَ ﷺ:" لاَ يَجْتَمِعُ شحٌّ وَإِيمَانٌ فِي قَلْبِ رَجُلٍ،وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي وَجْهِ عَبْدٍ."[٤١]

وَفِي لَفْظٍ « لاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِى جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا وَلاَ يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإِيمَانُ فِى قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا »[٤٢].

وَفِي لَفْظٍ "لا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ"[٤٣]

وَفِي لَفْظٍ " لَا يَبْكِي أَحَدٌ فَتَطْعَمَهُ النَّارُ،حَتَّى يُرَدَّ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ،وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرَيْ مُسْلِمٍ أَبَدًا "[٤٤].

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عن أبي الْمُصَبِّحِ الأَوْزَاعِيِّ،قَالَ:بَيْنَا نَسِيرُ فِي دَرْبِ قَلَمْيَةَ إِذْ نَادَى الأَمِيرَ مَالِكَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْخَثْعَمِيَّ،رَجُلاً يَقُودُ فَرَسَهُ فِي عِرَاضِ الْجَبَلِ:يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَلاَ تَرْكَبُ ؟ قَالَ:إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ،فَهُمَا حَرَامٌ عَلَى النَّارِ." [٤٥]

وَذَكَرَ عَنْهُ أَيْضًا عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لاَ يَجْمَعُ اللَّهُ فِي جَوْفِ رَجُلٍ غُبَارًا فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانَ جَهَنَّمَ،وَمَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ،حَرَّمَ اللَّهُ سَائِرَ جَسَدِهِ عَلَى النَّارِ،وَمَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ،بَاعَدَ اللَّهُ عَنْهُ النَّارَ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْتَعْجِلِ،وَمَنْ جُرِحَ جِرَاحَةً فِي سَبِيلِ اللهِ،خَتَمَ لَهُ بِخَاتَمِ الشُّهَدَاءِ،لَهُ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،لَوْنُهَا مِثْلُ لَوْنِ الزَّعْفَرَانِ،وَرِيحُهَا مِثْلُ رِيحِ الْمِسْكِ،يَعْرِفُهُ بِهَا الأَوَّلُونَ

---

[٤٠] - صحيح ابن حبان - (١٠ / ٤٦٤) (٤٦٠٤) صحيح - الحديث زيادة من عندي

[٤١] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٣ / ٣٠٢) (٨٥١٢) ٨٤٩٣- صحيح لغيره

[٤٢] - السنن الكبرى للبيهقي- المكنز - (٩ / ١٦١) (١٨٩٧٨) صحيح

[٤٣] - المعجم الكبير للطبراني - (١٩ / ١٨٦) (٤٥٧) وسنن النسائي- المكنز - (٣١٢٨) صحيح

[٤٤] - شعب الإيمان - (٢ / ٢٣٥) (٧٨٠) وسنن النسائي- المكنز - (٣١٢٦) صحيح

[٤٥] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٣٣٥)(٢١٩٦٢) ٢٢٣٠٨- صحيح

وَالآخرُونَ،يَقُولُونَ:فُلاَنٌ عَلَيْهِ طَابَعُ الشُّهَدَاءِ،وَمَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَـهُ الْجَنَّةُ." [46]

وَذَكَرَ أَحْمَدُ – رَحِمَهُ اللَّهُ – عَنْ عَائِشَةَ،أَنَّ مُكَاتَبًا لَهَا دَخَلَ عَلَيْهَا بِبَقِيَّةِ مُكَاتَبَتِـهِ،فَقَالَتْ لَهُ:أَنْتَ غَيْرُ دَاخِلٍ عَلَيَّ غَيْرَ مَرَّتِكَ هَذِهِ،فَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ،فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:مَا خَالَطَ قَلْبَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ رَهَجٌ فِي سَبِيلِ اللهِ،إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ." [47]

وعَنْ سَلْمَانَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِىَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ »[48].

وعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَـى عَمَلِـهِ إِلاَّ الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللهِ،فَإِنَّهُ يَنْمُو عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ."[49].

وعَنْ أَبِي صَالِحٍ،مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ،قَالَ:سَمِعْتُ عُثْمَانَ،يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ:أَيُّهَا النَّـاسُ إِنِّي كَتَمْتُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَرَاهِيَةَ تَفَرُّقِكُمْ عَنِّـي،ثُمَّ بَـدَا لِـي أَنْ أُحَدِّثَكُمُوهُ لِيَخْتَارَ امْرُؤٌ لِنَفْسِهِ مَا بَدَا لَهُ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ."[50] وَذَكَرَ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ ثَابِـتٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ خَطَبَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ النَّاسَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى سَـمِعْتُ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – لَمْ يَمْنَعْنِى أَنْ أُحَدِّثَكُمْ بِهِ إِلاَّ الضِّنُّ بِكُـمْ وَبِصَـحَابَتِكُمْ فَلْيَخْتَرْ مُخْتَارٌ لِنَفْسِهِ أَوْ لِيَدَعْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ « مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً فِى سَبِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَانَتْ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا »[51].

---

[46] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٨ / ٨٨٥)(٢٧٥٠٣) ٢٨٠٥٢– فيه انقطاع

[47] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٨ / ١٣٢) (٢٤٥٤٨) ٢٥٠٥٥– صحيح

[48] – صحيح مسلم– المكنز – (٥٠٤٧)

[49] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٧ / ٩٣٢)(٢٣٩٥١) ٢٤٤٥٠– صحيح

[50] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (١ / ٢١٨) ٤٧٠– حسن

[51] – سنن ابن ماجه– المكنز – (٢٨٧١) حسن لغيره

(الضن) أي البخل .(من رابط) أي لازم الثغر للجهاد – (صيامها وقيامها) أي صيام أيامها وقيام لياليها بالجر بدل من ألف ليلة .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَجُلاً،منْ أَصْحَاب رَسُول اللّه ﷺ:مَرَّ بشــعْب فيــه عُيَيْنَــةُ مَــاء عَذْب،فَأَعْجَبَهُ طيبُهُ،فَقَالَ:لَوْ أَقَمْتُ في هَذَا الشِّعْب فَاعْتَزَلْتُ النَّاسَ،وَلاَ أَفْعَلُ حَتَّى أَسْتَأْمرَ رَسُولَ اللّه ﷺ فَذَكَرَ ذَلكَ للنَّبيِّ ﷺ فَقَالَ:لاَ تَفْعَلْ،فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدكُمْ في سَبيلِ اللّه خَيْــرٌ منْ صَلاَة ستِّينَ عَامًا خَاليًا،أَلاَ تُحبُّونَ أَنْ يَغْفرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخلَكُمُ الْجَنَّةَ ؟ اغْزُوا في سَبيلِ اللّه،مَنْ قَاتَلَ في سَبيلِ اللّه فُوَاقَ نَاقَة،وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ.".[٥٢]

وَذَكَرَ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاء،تَرْفَعُ الْحَديثَ،قَالَتْ:مَنْ رَابَطَ في شَيْءٍ منْ سَوَاحلِ الْمُسْلمينَ ثَلاَثَةَ أَيَّام،أَجْزَأَتْ عَنْهُ رِبَاطَ سَنَة."[٥٣]

وَذَكَرَ وعَنْ عَبْد اللّه بْنِ الزُّبَيْر،قَالَ:قَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ:وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمنْبَــر:إِنِّــي أُحَدِّثُكُمْ حَديثًا لَمْ يَمْنَعْني أَنْ أُحَدِّثَكُمْ به إِلَّا الضَّنُّ بكُمْ.سَمعْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ،يَقُــولُ:" حَرْسُ لَيْلَة في سَبيلِ اللّه أَفْضَلُ منْ أَلْف لَيْلَة يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا "[٥٤]

عن أبي رَيْحَانَةَ،قال:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّه ﷺ في غَزْوَة،فَأَتَيْنَا ذَاتَ لَيْلَة إِلَــى شَــرَف،فَبِتْنَا عَلَيْه،فَأَصَابَنَا بَرْدٌ شَديدٌ حَتَّى رَأَيْتُ مَنْ يَحْفرُ في الأَرْضِ حُفْرَةً يَدْخُلُ فيهَا،وَيُلْقي عَلَيْــه الْحَجَفَةَ،يَعْني التُّرْسَ،فَلَمَّا رَأَى ذَلكَ رَسُولُ اللّه ﷺ منَ النَّاسِ نَادَى:مَنْ يَحْرُسُنَا في هَذه اللَّيْلَة،وَأَدْعُو لَهُ بدُعَاءٍ يَكُونُ فيه فَضْلٌ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مــنَ الأَنْصَــار:أَنَــا يَــا رَسُــولَ اللّه،فَقَالَ:ادْنُهْ،فَدَنَا،فَقَالَ:مَنْ أَنْــتَ ؟ فَتَسَــمَّى لَــهُ الأَنْصَــاريُّ،ففَتَحَ رَسُــولُ اللّه ﷺ بالدُّعَاء،فَأَكْثَرَ منْهُ.قَالَ أَبُو رَيْحَانَةَ:فَلَمَّا سَمعْتُ مَا دَعَا به رَسُولُ اللّه ﷺ،فَقُلْتُ:أَنَا رَجُلٌ آخَرُ،فَقَالَ:ادْنُهْ فَدَنَوْتُ،فَقَالَ:مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ:فَقُلْتُ:أَنَا أَبُو رَيْحَانَةَ،فَدَعَا بدُعَاءٍ هُوَ دُونَ مَا دَعَا للأَنْصَاريِّ،ثُمَّ قَالَ:حُرِّمَت النَّارُ عَلَى عَيْنٍ دَمَعَتْ،أَوْ بَكَتْ منْ خَشْيَة اللّه،وَحُرِّمَــت النَّارُ عَلَى عَيْنٍ سَهرَتْ في سَبيلِ اللَّه." [٥٥]

---

[٥٢] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٣ / ٧٧٨)(١٠٧٨٦) ١٠٧٩٦- حسن

[٥٣] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٨ / ٧٢٩)(٢٧٠٤٠) ٢٧٥٨٠- حسن لغيره

[٥٤] - شعب الإيمان - (٦ / ٩٩)(٣٩٢٩) ومسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ٢١٦)(٤٦٣- حسن

[٥٥] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٨٦١)(١٧٢١٣) ١٧٣٤٥- حسن لغيره

وَذَكَرَ أَحْمَدُ عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذ،عَنْ أَبِيه،عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ:مَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلمينَ في سَبيلِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتَطَوِّعًا،لاَ يَأْخُذُهُ سُلْطَانٌ،لَمْ يَرَ النَّارَ بِعَيْنَيْه،إلاَّ تَحلَّةَ الْقَسَمِ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ:{وَإِنْ منْكُمْ إلاَّ وَارِدُهَا}."[56]

وعَنْ زَيْد يَعْني ابْنَ سَلَّامٍ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَّامٍ،قَالَ:حَدَّثَنَا السَّلُوليُّ،أَنَّهُ حَدَّثَهُ سَهْلُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّة " أَنَّهُمْ سَارُوا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَأَطْنَبُوا السَّيْرَ حَتَّى كَانَ عَشيَّةً،فَحَضَرَتْ صَلَاةُ الظُّهْر عنْدَ رَسُول اللَّه ﷺ،فَجَاءَ رَجُلٌ فَارسٌ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه،إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْديكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا،فَإِذَا أَنَا بهَوَازنَ عَلَى بَكْرَة آبَائهمْ بظُعُنهمْ،وَنَعَمهمْ،وَشَائهمُ اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ،فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ،وَقَالَ:" تلْكَ غَنيمَةُ الْمُسْلمينَ غَدًا إنْ شَاءَ اللَّهُ "،ثُمَّ قَالَ:" مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ ؟ " قَالَ أَنَسُ بْنُ أَبي مَرْثَد الْغَنَويُّ:أَنَا يَا رَسُولَ اللَّه،قَالَ:" فَارْكَبْ "،فَرَكبَ فَرَسًا لَهُ،وَجَاءَ إِلَى رَسُول اللَّه ﷺ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ حَتَّى تَكُونَ في أَعْلَاهُ،وَلَا تُغَرَّنَّ مَنْ قبَلكَ اللَّيْلَةَ "،فَلَمَّا أَصْبَحْنَا،خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِلَى مُصَلَّاهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ:" هَلْ أَحْسَسْتُمْ فَارسَكُمْ ؟ " قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّه،مَا أَحْسَسْنَاهُ،فَثَوَّبَ بالصَّلَاة،فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ يَلْتَفتُ إِلَى الشِّعْب،حَتَّى إذَا قَضَى صَلَاتَهُ وَسَلَّمَ،قَالَ:" أَبْشرُوا،فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارسُكُمْ "،فَجَعَلْنَا نَنْظُرُ إِلَى الشَّجَرَة في الشِّعْب،فَإِذَا هُوَ قَدْ جَاءَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُول اللَّه ﷺ،فَسَلَّمَ فَقَالَ:إِنِّي انْطَلَقْتُ حَتَّى كُنْتُ في أَعْلَى هَذَا الشِّعْب حَيْثُ أَمَرَني رَسُولُ اللَّه ﷺ،فَلَمَّا أَصْبَحْتُ طَلَعْتُ الشِّعْبَيْنِ كلَيْهمَا فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" هَلْ نَزَلْتَ اللَّيْلَةَ ؟ " قَالَ:لَا،إلَّا مُصَلِّيًا أَوْ قَاضِيَ حَاجَة،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" قَدْ أَوْجَبْتَ،فَلَا عَلَيْكَ أَلَّا تَعْمَلَ بَعْدَهَا " [57]

---

[56] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٣٧١)(١٥٦١٢) ١٥٦٩٧- حسن

[57] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (١٨٨٣) حسن

أطنبوا السير:بالغوا فيه وتبع بعض الإبل بعضا -الظعن:جمع ظعينة وهي المرأة،وقيل:المرأة في الهودج - النعم:الإبل والشاء،وقيل الإبل خاصة -التثويب:الدعاء إلى الصلاة،وإقامتها،وقول المؤذن وترديده في الفجر:الصلاة خير من النوم - الشعب:الطريق في الجبل أو الانفراج بين الجبلين

وعَنْ أَبِي نَجِيحٍ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:حَاصَرْنَا قَصْرَ الطَّائِف،فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّــهِ ﷺ،يَقُولُ:مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُ عَدْلُ مُحَرَّرٍ،وَمَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ فَبَلَغْتُ فِي يَوْمٍ سِتَّةَ عَشَرَ سَهْمًا " [58]

وعَنْ أَبِي نَجِيحٍ السُّلَمِيِّ،قَالَ:حَاصَرْنَا مَعَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ حِصْنَ الطَّائِف،فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فَلَهُ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ قَالَ:فَبَلَغْتُ يَوْمَئِذٍ سِتَّةَ عَشَرَ سَهْمًا،فَسَــمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ عِدْلُ مُحَرَّرٍ،وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي سَبِيلِ اللهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَأَيُّمَا رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَجُلاً مُسْلِمًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ وَفَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهِ مِنَ النَّارِ،وَأَيُّمَا امْــرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَتْ امْرَأَةً مُسْلِمَةً،فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ وَفَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهَا عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهَا مِنَ النَّارِ."[59]

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:غَيْرَتَانِ:إِحْدَاهُمَا يُحِبُّهَا اللَّهُ،وَالأُخْرَى يُبْغِضُهَا اللَّهُ،وَمَخِيلَتَانِ:إِحْدَاهُمَا يُحِبُّهَا اللَّهُ،وَالأُخْرَى يُبْغِضُهَا اللَّهُ،الْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ يُحِبُّهَــا اللَّهُ،وَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِهِ يُبْغِضُهَا اللَّهُ،وَالْمَخِيلَةُ إِذَا تَصَدَّقَ الرَّجُلُ يُحِبُّهَا اللَّهُ،وَالْمَخِيلَــةُ فِــي الْكِبْرِ يُبْغِضُهَا اللَّهُ.

وَقَالَ:ثَلاَثٌ مُسْتَجَابٌ لَهُمْ دَعْوَتُهُمْ:الْمُسَافِرُ،وَالْوَالِدُ،وَالْمَظْلُومُ.

وَقَالَ:إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ الْجَنَّةَ ثَلاَثَةً:صَانِعَهُ،وَالْمُمِدَّ بِهِ،وَالرَّامِيَ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عز وجل." رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ[60]

وَعِنْدَ ابْنِ مَاجَهْ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ نَهِيكٍ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِىَّ يَقُــولُ سَــمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ « مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْىَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَقَدْ عَصَانِى »[61].

---

[58] - المستدرك للحاكم (٢٥٦٠) صحيح

[59] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٨٠٧)(١٧٠٢٢) ١٧١٤٧- صحيح

[60] - شرح السنة للبغوي - (٢٥٤٦) ومسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٩١١)(١٧٣٩٨) ١٧٥٣٣- والمسند الجامع - (١٣ / ٨٦) (٩٨٧٩) صحيح

[61] - سنن ابن ماجه- المكنز - (٢٩٢١) حسن

من علم الرمي أي رمي النشاب ثم تركه فليس منا أي من علم رمي السهم ثم تركه فليس من المتخلقين بأخلاقنا والعاملين بسنتنا أو ليس متصلا بنا ولا داخلا في زمرتنا وهذا أشد ممن لم يتعلمه لأنه لم يدخل في زمرتهم وهذا دخل ثم

وَذَكَرَ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،أَنَّ رَجُلاً جَاءَهُ فَقَالَ:أَوْصِنِي.فَقَالَ:سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ،أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ،فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ،وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ،فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلاَمِ،وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ،فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ،وَذِكْرُكَ فِي الأَرْضِ.".[٦٢]

وَقَالَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلاَمِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ."[٦٣]

وَقَالَ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « ثَلاَثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمُ الْمُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُكَاتَبُ الَّذِى يُرِيدُ الأَدَاءَ وَالنَّاكِحُ الَّذِى يُرِيدُ الْعَفَافَ »[٦٤].

وَقَالَ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ »[٦٥].

وَذَكَرَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِى أُمَامَةَ عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ:« مَنْ لَمْ يَغْزُ أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ أَصَابَهُ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ ».قَالَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِى حَدِيثِهِ:« قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ »[٦٦].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:" إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ،وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَتَبَايَعُوا بِالْعِينِ،أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءَ،فَلَا يَرْفَعُهُ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ "[٦٧].

خرج فكأنه استهزاء به وهو كفران لتلك النعمة الخطيرة فيكره ذلك كراهة شديدة لما في التهديد من التشديد وثم للتراخي في الرتبة يعني رتبة الترك متراخية عن رتبة التعلم فلا يقدر عليها لا للتراخي في الزمن للحوق الوعيد له وإن كان الترك عقب التعلم وهذا تشديد عظيم في نسيانه بعد تعلمه اهـ فيض القدير ج:٦ ص:١٨١

[٦٢] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٤ / ٢٠٦)(١١٧٧٤) ١١٧٩٦– حسن

[٦٣] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٧ / ٣٥٩)(٢٢٠٥١) ٢٢٤٠١– حسن

[٦٤] – سنن الترمذى– المكنز – (١٧٥٦) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

[٦٥] – صحيح مسلم– المكنز – (٥٠٤٠) ومسند أحمد (عالم الكتب) – (٣ / ٣٨٢) (٨٨٦٥) ٨٨٥٢–
وَالْمُرَاد أَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدْ أَشْبَهَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ الْجِهَاد فِي هَذَا الْوَصْف،فَإِنَّ تَرْك الْجِهَاد أَحَد شُعَب النِّفَاق .وَفِي هَذَا الْحَدِيث:أَنَّ مَنْ نَوَى فِعْل عِبَادَة فَمَاتَ قَبْل فِعْلهَا لَا يَتَوَجَّه عَلَيْهِ مِنْ الذَّمّ مَا يُتَوَجَّه عَلَى مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَنْوِهَا .شرح النووي على مسلم – (٦ / ٣٩١)

[٦٦] – سنن أبي داود – المكنز – (٢٥٠٥) حسن

[٦٧] – شعب الإيمان – (٦ / ٩٢) (٣٩٢٠) صحيح

وَذَكَرَ ابْنُ مَاجَهْ وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « مَنْ لَقِىَ اللَّهَ وَلَيْسَ لَهُ أَثَرٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَقِىَ اللَّهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ »[٦٨].

وَقَالَ تَعَالَى: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (١٩٥) سورة البقرة وَفَسّرَ أَبُو أَيّوبَ الْأَنْصَارِيّ الْإِلْقَاءَ بِالْيَدِ إِلَى التّهْلُكَةِ بِتَرْكِ الْجِهَادِ،فعَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ،قَالَ:"غَزَوْنَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ،وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ،وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَّا عَلَى الْعَدُوِّ،فَقَالَ النَّاسُ:مَهْ مَهْ،لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ،يُلْقِي بِيَدَيْهِ،فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ:إِنَّمَا تُأَوِّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَكَذَا،إِنْ حَمَلَ رَجُلٌ يَلْتَمِسُ الشَّهَادَةَ أَوْ يُبْلَى مِنْ نَفْسِهِ،إِنَّمَا نَزَلَتِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ،إِنَّا لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ،وَأَظْهَرَ الإِسْلامَ،قُلْنَا بَيْنَنَا خَفِيًّا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:إِنَّا كُنَّا قَدْ تَرَكْنَا أَهْلَنَا وَأَمْوَالَنَا أَنْ نُقِيمَ فِيهَا وَنُصْلِحَهَا حَتَّى يَنْصُرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ،هَلْ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْخَبَرَ مِنَ السَّمَاءِ:" وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ "وَالإِلْقَاءُ بِالأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ:أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ"،وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ:فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ[٦٩]"

وَصَحّ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبِي،يَقُولُ وَهُوَ بِحِصْنِ الْعَدُوِّ أَوْ بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ،فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ،فَقَالَ:يَا أَبَا مُوسَى أَنْتَ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُهُ ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:فَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلاَمَ،ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ،فَأَلْقَاهُ،ثُمَّ مَضَى بِسَيْفِهِ قُدُمًا،فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ.[٧٠].

---

[٦٨] - سنن ابن ماجه- المكنز - (٢٨٦٨) ضعيف

(وليس له أثر) أي عمل بأن غزا أو جهز غازيا أو خلفه بخير - (ثلمة) أي نقصان

[٦٩] - تفسير ابن أبي حاتم - (٢ / ٤)(١٧٧٦) صحيح

[٧٠] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٢٥) وسنن الترمذى- المكنز - (١٧٦٠) صحيح ابن حبان - (١٠ / ٤٧٨) (٤٦١٧) -الجفن:الغمد -الرث:الخلق البالى

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ،فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ:" مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ أَعَلَى،فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ " [71].

وَصَحّ عَنْهُ إنّ النّارَ أَوّلُ مَا تُسَعّرُ بِالْعَالِمِ وَالْمُنَفِّقِ وَالْمَقْتُولِ فِي الْجِهَادِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِيُقَالَ ،فعن عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ،حَدَّثَهُ أَنَّ شُفَيًّا الأَصْبَحِيَّ حَدَّثَهُ،أَنَّهُ دَخَلَ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ،فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَد اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ،فقَالَ:مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا:أَبُو هُرَيْرَةَ،قَالَ:فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ،وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ،فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلاَ،قُلْتُ لَهُ:أَنْشُدُكَ بِحَقِّي لَمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ.فقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَفْعَلُ،لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ،ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً فَمَكَثَ قَلِيلاً،ثُمَّ أَفَاقَ،فقَالَ:لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ،ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى،فَمَكَثَ كَذَلِكَ،ثُمَّ أَفَاقَ،فَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ،فقَالَ:أَفْعَلُ،لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ،ثُمَّ نَشَغَ نَشْغَةً شَدِيدَةً،ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ،وَاشْتَدَّ بِهِ طَوِيلاً،ثُمَّ أَفَاقَ،فقَالَ:حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى،إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ،يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ،وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ.فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ،وَرَجُلٌ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ،فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْقَارِئِ:أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي ﷺ ؟ قَالَ:بَلَى يَا رَبِّ،قَالَ:فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ ؟ قَالَ:كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ،فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ:كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ:كَذَبْتَ،وَيَقُولُ اللَّهُ:بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ:فُلاَنٌ قَارِئٌ،فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ:أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ ؟ قَالَ:بَلَى يَا رَبِّ،قَالَ:فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ ؟ قَالَ:كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ:كَذَبْتَ،وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ لَهُ:كَذَبْتَ،وَيَقُولُ اللَّهُ:بَلْ إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ:فُلاَنٌ جَوَادٌ،فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ

---

[71] - شعب الإيمان - (٦ / ١٢٣) (٣٩٥٨) وصحيح البخارى- المكنز - (١٢٣) وصحيح مسلم- المكنز - (٥٠٢٨)

فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقَالُ لَهُ:فِي مَاذَا قُتِلْتَ ؟ فَيَقُولُ:أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ،فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ،فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ:كَذَبْتَ،وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ:كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ:بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ:فُلاَنٌ جَرِيءٌ،فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رُكْبَتِي،فقَالَ:يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلاَثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ أَبِي الْوَلِيدِ:فَأَخْبَرَنِي عُقْبَةُ أَنَّ شُفَيًّا هُوَ الَّذِي دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا الْخَبَرِ.قَالَ أَبُو عُثْمَانَ الْوَلِيدُ وَحَدَّثَنِي الْعَلاَءُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ،أَنَّهُ كَانَ سَيَّافًا لِمُعَاوِيَةَ،قَالَ:فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ،فَحَدَّثَهُ بِهَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،فقَالَ مُعَاوِيَةُ:قَدْ فُعِلَ بِهَؤُلاَءِ مِثْلُ هَذَا،فَكَيْفَ بِم[72]نْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ ؟ "[73]

وَصَحّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" لَا أَجْرَ لَهُ ".فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ،وَقَالُوا لِلرَّجُلِ:عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفَهِّمْهُ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا،فَقَالَ:" لَا أَجْرَ لَهُ ".فَقَالُوا:لِلرَّجُلِ عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لَهُ:الثَّالِثَةَ.فَقَالَ لَهُ:" لَا أَجْرَ لَهُ "

وَصَحّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو[74]،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَخْبِرْنِي عَنِ الْجِهَادِ وَالْغَزْوِ ؟ فَقَالَ:" يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو،إِنْ قَاتَلْتَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا،بَعَثَكَ اللَّهُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا،وَإِنْ قَاتَلْتَ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا بَعَثَكَ اللَّهُ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا،يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو،عَلَى أَيِّ حَالٍ قَاتَلْتَ،أَوْ قُتِلْتَ بَعَثَكَ اللَّهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ " .[75]

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين،جديرة بالوقوف أمامها طويلا.ولكننا في هذه الظلال لا نملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة:

السمة الأولى:هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين ..

---

[72] - سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ (٢١٩٨) صحيح لغيره

[73] - صحيح ابن حبان - (٢ / ١٣٥) (٤٠٨) والمستدرك للحاكم(١٥٢٧) صحيح

[74] - سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ (٢٢٠٠) صحيح

[75] - زاد المعاد - (ج ٣ / ص ٦٢) بطوله،وقد اختصره الشهيد رحمه الله،فجئت به كاملاً

فهو حركة تواجه واقعا بشريا ..وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي ..إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية تقوم عليها أنظمة واقعية عملية تسندها سلطات ذات قوة مادية ..ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه ..تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل ..إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي.كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد ..وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده كما سيجيء ..

والسمة الثانية في منهج هذا الدين ..هي الواقعية الحركية.

فهو حركة ذات مراحل.كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية.وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها ..فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة.كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة ..والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد،ولا يراعون هذه السمة فيه،ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج،وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها ..الذين يصنعون هذا يخلطون خلطا شديدا ويلبسون منهج هذا الدين لبسا مضللا،ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية.

ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصا نهائيا يمثل القواعد النهائية في هذا الدين.ويقولون – وهم مهزومون روحيا وعقليا تحت ضغط الواقع اليائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان –:إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع! ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلا بتخلية عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعا،وتعبيد الناس للّه وحده،وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته.ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة ..بعد تحطيم

الأنظمة السياسية الحاكمة،أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها ..

والسمة الثالثة:هي أن هذه الحركة الدائبة،والوسائل المتجددة،لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة،ولا عن أهدافه المرسومة.

فهو منذ اليوم الأول – سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين،أو يخاطب قريشا،أو يخاطب العرب أجمعين،أو يخاطب العالمين،إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد ..هو إخلاص العبودية للّه،والخروج من العبودية للعباد ..لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين.

ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد،في خطة مرسومة ذات مراحل محددة لكل مرحلة وسائلها المتجددة على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة.

والسمة الرابعة:هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى

على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد الذي نقلناه عن «زاد المعاد».وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام للّه هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي،أو قوة مادية.وأن تخلي بينه وبين كل فرد،يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته.ولكن لا يقاومه ولا يحاربه! فإن فعل ذلك أحد كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه! والمهزومون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن «الجهاد في الإسلام» ليدفعوا عن الإسلام هذا «الاتهام!».

يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة،وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية للّه ..وهما أمر أن لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما ..ومن أجل هذا التخليط – وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة! – يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم:«الحرب الدفاعية» ..والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم،ولا بواعثها،ولا تكييفها كذلك ..إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في

طبيعة «الإسلام» ذاته،ودوره في هذه الأرض،وأهدافه العليا التي قررها اللّه وذكر اللّه أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة،وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات ..

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد – ومن العبودية لهواه أيضا وهي من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهية اللّه وحده – سبحانه – وربوبيته للعالمين ..إن إعلان ربوبية اللّه وحده للعالمين معناها:الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور ..أو بتعبير آخر مرادف:

الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور ..ذلك أن الحكم الذي مرد الأمر فيه إلى البشر،ومصدر السلطات فيه هم البشر،هو تأليه للبشر،يجعل بعضهم لبعض أربابا من دون اللّه ..إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان اللّه المغتصب ورده إلى اللّه وطرد المغتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب ويقوم الناس منهم مقام العبيد ..إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة اللّه في الأرض ..

أو بالتعبير القرآني الكريم:«وَهُوَ الَّذي في السَّماءِ إلهٌ وَفي الْأَرْضِ إلهٌ» ..

«إنِ الْحُكْمُ إلَّا للَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ ..ذلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ..» ..

«قُلْ:يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ:أَلَّا نَعْبُدَ إلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً،وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ.فَإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا:اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

ومملكة اللّه في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم – هم رجال الدين كما كان الأمر في سلطان الكنيسة،ولا رجال ينطقون باسم الآلهة،كما كان الحال في ما يعرف باسم «الثيوقراطية» أو الحكم الإلهي المقدس!!! – ولكنها تقوم بأن تكون شريعة اللّه هي الحاكمة وأن يكون مرد الأمر إلى اللّه وفق ما قرره من شريعة مبينة.

وقيام مملكة اللّه في الأرض،وإزالة مملكة البشر.وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد ورده إلى اللّه وحده.وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية ..كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان.

لأن المتسلطين على رقاب العباد،المغتصبين لسلطان اللّه في الأرض،لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان.وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين اللّه في الأرض! وهـذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل – صلوات اللّه وسلامه عليهم – وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال! إن هذا الإعلان العام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل سلطان غير سلطان اللّه،بإعلان ألوهية اللّه وحده وربوبيته للعالمين، لم يكن إعلانا نظريا فلسفيا سلبيا ..إنما كان إعلانا حركيا واقعيا إيجابيا ..إعلانا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة اللّه ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده بلا شريك ..ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل «الحركة» إلى جانب شكل «البيان» ..ذلك ليواجه «الواقع» البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه.

والواقع الإنساني،أمس واليوم وغدا،يواجه هذا الدين – بوصفه إعلانا عاما لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل سلطان غير سلطان اللّه – بعقبات اعتقادية تصورية.وعقبات مادية واقعية ..عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية،إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة ..وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد ..

وإذا كان «البيان» يواجه العقائد والتصورات،فإن «الحركة» تواجه العقبات المادية الأخرى – وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية،والعنصرية والطبقية،والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة ..وهما معا – البيان والحركة – يواجهان «الواقع البشري» بجملته،بوسائل مكافئة لكل مكوناته ..وهما معا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض ..«الإنسان» كله في «الأرض» كلها ..وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى! إن هذا الدين ليس إعلانا لتحرير الإنسان العربي! وليس رسالة خاصة بالعرب! ..إن موضوعه هو «الإنسان» ..نوع «الإنسان» ..ومجاله هو «الأرض» ..كل الأرض.إن اللّه – سبحانه – ليس ربا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم ..إن اللّه هو «رب العالمين» ..وهذا الدين يريد أن يرد «العالمين» إلى ربهم وأن ينتزعهم من العبودية

لغيره.والعبودية الكبرى – في نظر الإسلام – هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر ..وهذه هي «العبادة» التي يقرر أنها لا تكون إلا للّه.وأن من يتوجه بها لغير اللّه يخرج من دين اللّه مهما ادعى أنه في هذا الدين.ولقد نص رسول اللّـه – ﷺ- علـى أن «الاتباع» في الشريعة والحكم هو «العبادة» التي صار بها اليهود والنصارى «مشـركين» مخالفين لما أمروا به من «عبادة» اللّه وحده ..

أخرج الترمذي عَنْ عَدِىٍّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِىَّ -ﷺ- وَفِى عُنُقِى صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ.فَقَالَ « يَا عَدِىُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ ».وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِى سُورَةِ بَرَاءَةَ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ « أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ »[٧٦]....

وعَنْ حُذَيْفَةَ ، فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ } [التوبة:٣١] ، قَالَ:" أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي الْمَعَاصِي "[٧٧].

وقال أَبُو الْبَخْتَرِيِّ الطَّائِيُّ:قَالَ لِي حُذَيْفَةُ:"أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَـذُوا أَحْبَـارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَالَ حُذَيْفَةَ:"أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يُصَلُّوا لَهُمْ،وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا مَا أَحَلُّوا لَهُمْ مِنْ حَرَامٍ اسْتَحَلُّوهُ،وَمَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَرَامِ حَرَّمُوهُ فَتِلْكَ رُبُوبِيَّتُهُمْ "[٧٨]....

وتفسير رسول اللّه – ﷺ- لقول اللّه سبحانه،نص قاطع على أن الاتبـاع في الشـريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين،وأنها هي اتخاذ بعض الناس أربابا لبعض ..الأمـر الذي جاء هذا الدين ليلغيه،ويعلن تحرير «الإنسان»،في «الأرض» من العبودية لغير اللّه .. ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في «الأرض» لإزالة «الواقـع» المخـالف لـذلك الإعلان العام ..بالبيان وبالحركة مجتمعين ..وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد

---

[٧٦] – سنن الترمذى- المكتر – (٣٣٧٨) وشعب الإيمان – (١٢ / ٢٢) (٨٩٤٨) حسن لغيره

[٧٧] – شعب الإيمان – (١٢ / ٢٢) (٨٩٤٨) ومصنف ابن أبي شيبة – (١٣ / ٤٢٢)(٣٦٠٨٤) والتفسير من سـنن سعيد بن منصور – (٣ / ٣١٣) (٩٥٩) صحيح

[٧٨] – التفسير من سنن سعيد بن منصور – (٣ / ٣١٣) (٩٥٩) والفقيه والمتفقه للخطيب البغـدادي – (٢ / ٣٤٨) (٧٤٩) صحيح

الناس لغير اللّه – أي تحكمهم بغير شريعة اللّه وسلطانه – والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى «البيان» واعتناق «العقيدة» بحرية لا يتعرض لها السلطان.

ثم لكي يقيم نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي – بعد إزالة القوة المسيطرة – سواء كانت سياسية بحتة،أو متلبسة بالعنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد! إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته ..ولكن الإسلام ليس مجرد «عقيدة» ..

إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد.فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان ..ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحرارا – بالفعل – في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم – بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم – ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيدا للعباد! وأن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه! ..إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية للّه وحده وذلك بتلقي الشرائع منه وحده.ثم ليعتنق كل فرد – في ظل هذا النظام العام – ما يعتنقه من عقيدة! وبهذا يكون «الدين» كله للّه.أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها للّه ..إن مدلول «الدين» أشمل من مدلول «العقيدة» ..إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة.ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة ..وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية للّه وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام ..

والذي يدرك طبيعة هذا الدين – على النحو المتقدم – يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف – إلى جانب الجهاد بالبيان – ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية – بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح «الحرب الدفاعية» – كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام – إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير «الإنسان»

في «الأرض» ..بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري وفي مراحل محـــددة لكـــل مرحلة منها وسائلها المتجددة.

وإذا لم يكن بد من أن نسمي حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية،فلا بد أن نغير مفهوم كلمة «دفاع».

ونعتبره «دفاعا عن الإنسان» ذاته،ضد جميع العوامل التي تقيد حريته وتعوق تحرره ..هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات كما تتمثل في الأنظمة السياسية،القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية،التي كانت سائدة في الأرض كلـــها يـــوم جـــاء الإسلام والتي ما تزال أشكال منها سائدة في الجاهلية الحاضرة في هـــذا الزمـــان! وبهـــذا التوسع في مفهوم كلمة «الدفاع» نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامي في «الأرض» بالجهاد ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها،وهي أنه إعلان عام لتحرير الإنسان مـــن العبودية للعباد،وتقرير ألوهية اللّه وحده وربوبيته للعالمين وتحطيم مملكة الهوى البشري في الأرض،وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان ..

أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت لمجرد صـــد العدوان من القوى المجاورة على «الوطن الإسلامي!» – وهو في عرف بعضـــهم جزيـــرة العرب – فهي محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين،ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الأرض.كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشـــراقي الماكر على الجهاد الإسلامي! ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان – رضي اللّه عنـــهم – قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد،وأمام الدعوة تلك العقبات المادية – مـــن أنظمة الدولة السياسية وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية،والاقتصادية الناشئة من الاعتبـــار ات العنصرية والطبقية،والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك؟! إنها سذاجة أن يتصـــور الإنسان دعوة تعلن تحرير «الإنسان» ..نوع الإنسان ..في «الأرض» ..كـــل الأرض ..ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان! ..إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى

بينها وبين الأفراد،تخاطبهم بحرية،وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات ..فهنـــا «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ»

أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية،فلا بد من إزالتها أولا بالقوة،للتمكن مـــن مخاطبة قلب الإنسان وعقله وهو طليق من هذه الأغلال! إن الجهاد ضرورة للــدعوة.إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الإنسان إعلانا جادا يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئـــة له في كل جوانبه ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري السلبي! سواء كان الوطن الإسلامي – وبالتعبير الإسلامي الصحيح:دار الإسلام – آمنا أم مهددا من جيرانه.فالإســلام حـــين يسعى إلى السلم،لا يقصد تلك السلم الرخيصة وهي مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية.إنما هو يريد السلم التي يكون الدين فيها كله للّه.أي تكون عبودية الناس كلهم فيها للّه والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضـــا أربابـــا مـــن دون اللّه.والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام – بأمر من اللّه – لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها ..ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمـــام ابـــن القيم:«فاستقر أمر الكفار معه – بعد نزول براءة – على ثلاثة أقسام:محـــاربين لـــه،وأهل عهد،وأهل ذمة ..ثم آلت حال أهل العهـــد والصـــلح إلى الإســـلام ..فصـــاروا معـــه قسمين:محاربين،وأهل ذمة.والمحاربون له خائفون منه ..

فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:مسلم مؤمن به.ومسالم له آمن (وهم أهل الذمة كمـــا يفهم من الجملة السابقة) وخائف محارب» ..وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هـــذا الدين وأهدافه.لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر،وأمام هجوم المستشرقين الماكر!

ولقد كف اللّه المسلمين عن القتال في مكة وفي أول العهد بالهجرة إلى المدينـــة ..وقيـــل للمسلمين:«كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ» ..ثم أذن لهم فيه،فقيل لهـــم:«أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا،وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ،الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْـــرِ حَقٍّ – إِلَّا أَنْ يَقُولُوا:رَبُّنَا اللَّهُ.وَلَوْلا دَفْعُ اللَّه النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَـــعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّه كَثِيراً،وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ،إِنَّ اللَّـــهَ لَقَـــوِيٌّ عَزِيزٌ.الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ

الْمُنْكَرِ،وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» ..ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم:«وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ» ..ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم:«وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» ..وقيل لهم:«قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ،حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ» ..

فكان القتال – كما يقول الإمام ابن القيم – «محرما،ثم مأذونا به،ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال،ثم مأمورا به لجميع المشركين» ..

إن جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد وجدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام،وعلى مدى طويل من تاريخه ..إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي! ومن ذا الذي يسمع قول اللّه سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله – ﷺ- ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي ثم يظنه شأنا عارضا مقيدا بملابسات تذهب وتجيء ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود؟! لقد بين اللّه للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض،لدفع الفساد عن الأرض:«أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا،وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ.الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ.وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً» ..وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة.الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق والباطل في هذه الأرض.وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية اللّه للعالمين،وتحرير الإنسان من العبودية للعباد،رماه المغتصبون لسلطان اللّه في الأرض ولم يسالموه قط وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن «الإنسان» في «الأرض» ذلك السلطان الغاصب ..حال دائمة لا يكف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله للّه.

إن الكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة.كذلك كان الأمـــر أول العهد بالهجرة.

والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجـــرد تـــأمين المدينة ..هذا هدف أولي لا بد منه ..ولكنه ليس الهدف الأخير ..إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ويؤمن قاعدة الانطلاق ..

الانطلاق لتحرير «الإنسان»،ولإزالة العقبات التي تمنع «الإنسان» ذاته مـــن الانطـــلاق! وكف أيدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم.لأنه كان مكفـــولا للـــدعوة في مكة حرية البلاغ ..

كان صاحبها - ﷺ- يملك بحماية سيوف بني هاشم،أن يصدع بالدعوة ويخاطـــب بهـــا الآذان والعقول والقلوب ويواجه بها الأفراد ..لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من إبلاغ الدعوة،أو تمنع الأفراد من سماعه! فلا ضرورة - في هـــذه المرحلـــة - لاســـتخدام القوة.وذلك إلى أسباب أخرى لعلها كانت قائمة في هذه المرحلة[٧٩].



[٧٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٩١٣]

إن الذين يلجأون إلى تلمس أسباب دفاعية بحتة لحركة المد الإسلامي،إنما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية،في وقت لم تعد للمسلمين شوكة بل لم يعد للمسلمين إسـلام! – إلا من عصم اللّه ممن يصرون على تحقيق إعلان الإسـلام العـام بتحريـر «الإنسـان» في «الأرض» من كل سلطان إلا سلطان اللّه،ليكون الدين كله للّه – فيبحثون عن مـبررات أدبية للجهاد في الإسلام!

والمد الإسلامي ليس في حاجة إلى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية:

« فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّه الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَة.وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّه فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيه أَجْراً عَظِيماً.وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مـنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ:رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِه الْقَرْيَة الظَّالِمِ أَهْلُها،وَاجْعَـلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً؟ الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه،وَالَّـذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ،فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ،إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً» ...(النساء:٧٤ – ٧٦).

«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا:إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ،وَإِنْ يَعُـودُوا فَقَـدْ مَضَـتْ سُـنَّتُ الْأَوَّلِينَ.وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه،فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ،نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِـيرُ» ...(الأنفـال:٣٨ – ٤٠) ..

« قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّـهُ وَرَسُـولُهُ،وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتـابَ حَتَّـى يُعْطُـوا الْجِزْيَـةَ عَـنْ يَـد وَهُـمْ صاغِرُونَ.وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّه،وَقالَتِ النَّصارى:الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّـه.ذلِـكَ قَـوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ،قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ! اتَّخَذُوا أَحْبـارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّه وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ،وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً،لا إِلهَ إِلَّا

هُوَ،سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ،وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» ..(التوبة:٢٩ – ٣٢).

إنها مبررات تقرير ألوهية اللّه في الأرض وتحقيق منهجه في حياة الناس.ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس،والناس عبيد اللّه وحده،لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه! وهذا يكفي ..مع تقرير مبدأ:«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ» ..أي لا إكراه على اعتناق العقيدة،بعد الخروج من سلطان العبيد والإقرار بمبدأ أن السلطان كله للّه.أو أن الدين كله للّه.بهذا الاعتبار .

إنها مبررات التحرير العام للإنسان في الأرض.بإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده بلا شريك ..وهذه وحدها تكفي ..ولقد كانت هذه المبررات ماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين فلم يسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول:خرجنا ندافع عن وطننا المهدد! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين! أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة! لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر،وحذيفة بن محصن،والمغيرة بن شعبة،جميعا لرستم قائد جيش الفرس في القادسية،وهو يسألهم واحدا بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية،قبل المعركة:ثم بعث إليه سعد رضي الله عنه رسولاً آخر بطلبه وهو ربعي بن عامر،فدخل عليه وقد زيَّنوا مجلسه بالنَّمارق المذهَّبة،والزَّرابي الحرير،وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة والزينة العظيمة،وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة،وقد جلس على سرير من ذهب.ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة،ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط،ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد،وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه وبيضتُه على رأسه.فقالوا له:ضع سلاحك فقال:إني لم آتكم وإنّم جئتكم حين دعوتموني،فإنما تركتموني هكذا وإلا رجعت.فقال رستم:إئذنوا له،فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النَّمارق فخرَّق عامتها،فقالوا له:ما جاء بكم؟ فقال:الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله،ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها،ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام،فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه،ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله،قالوا:وما موعودُ الله؟

قال:الجنة لمن مات على قتال من أبى،والظفر لمن بقي.فقال رستم:لقد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال:نعم،كم أحبُّ إليكم؟ يوماً أو يومين،قال:لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.فقال:ما سنَّ لنا رسول الله ﷺأن نؤخِّر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث،فانظر في أمرك وأمرهم،واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.فقال:

أسيِّدهم أنت؟ قال:لا،ولكن المسلمون كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم.فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال:هل رأيتم قط أعزَّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا:معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟ فقال:ويلَكم لا تنظروا إلى الثياب،وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة،إن العرب يستخفُّون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب...[80]

إن هناك مبررا ذاتيا في طبيعة هذا الدين ذاته وفي إعلانه العام،وفي منهجه الواقعي لمقابلة الواقع البشري بوسائل مكافئة لكل جوانبه،في مراحل محددة،بوسائل متجددة ..وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء – ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى المسلمين فيها – إنه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته،وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية ..لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة،وموقوتة!

وإنه ليكفي أن يخرج المسلم مجاهدا بنفسه وماله ..«فِي سَبِيلِ اللَّهِ».في سبيل هذه القيم التي لا يناله هو من ورائها مغنم ذاتي ولا يخرجه لها مغنم ذاتي ..

إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان ..مع هواه وشهواته[81] ..مع مطامعه ورغباته ..مع مصالحه ومصالح عشيرته

---

[80] – البداية والنهاية لابن كثير – موافقة للمطبوع [٧ /٤٦]

[81] – عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْمٌ غُزَاةٌ ، فَقَالَ ﷺ " قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ . قَالُوا : وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ ؟ قَالَ : مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ " الزهد الكبير للبيهقي [١ /٣٨٨](٣٨٤) ضعيف.

وعَنْ حَيْوَةَ بْنِ شُرَيْحٍ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو هَانِئٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ عَمْرَو بْنَ مَالِكٍ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ لِلَّهِ "الْجِهَادُ لِابْنِ أَبِي عَاصِمٍ(١١) صحيح

المجاهدة : الاجتهاد في طاعة الله وزيادة النوافل تقربا إليه سبحانه

وقومه ..مع كل شارة غير شارة الإسلام ..ومع كل دافع إلا العبودية للّه،وتحقيق سلطانه في الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان اللّه ..

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية «الوطن الإسلامي» يغضون من شأن «المنهج» ويعتبرونه أقل من «الموطن»! وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :" ولما كان جهاد أعداء الله فى الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه فى ذات الله، كما عَنْ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ ،قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللهِ.صحيح ابن حبان– ط٢ مؤسسة الرسالة [١١ /٥](٤٧٠٦) صحيح.

كان جهادُ النفس مُقَدَّماً على جهَاد العدوِّ فى الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يُجاهدْ نفسه أوَّلاً لتفعل ما أُمِرَتْ به، وتتركَ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبْهَا فى الله، لم يُمكنْهُ جهادُ عدوه فى الخارج، فكيف يُمكنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوُّه الذى بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه فى الله، بل لا يُمكنه الخروجُ إلى عدوِّه، حتى يُجاهدَ نفسَه على الخروج.

فهذان عدوَّان قد امْتُحنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالث، لا يمكنه جهادُهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يُثَبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخَذِّلُه، ويُرجفُ به، ولا يزالُ يُخَيِّل له ما فى جهادهما من المشاق، وترك الحظوظ، وفوت اللذات، والمشهيات، ولا يُمكنه أن يُجاهدَ ذَيْنكَ العدويْن إلا بجهاده، فكان جهادُه هو الأصلَ لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى: {إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخذُوهُ عَدُوّاً} [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوُسع فى مُحاربته ومجاهدته، كأنَّهُ عدو لا يَفْتُر، ولا يُقصِّر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أُمرَ العبدُ بمحاربتها وجهادها، وقد بُلى بمحاربتها فى هذه الدار، وسُلِّطَتْ عليه امتحاناً من الله له وابتلاءً، فأعطى اللهُ العبدَ مدداً وعُدَّةً وأعواناً وسلاحاً لهذا الجهَاد، وأعطى أعداءه مدداً وعُدَّةً وأعواناً وسلاحاً، وبَلاَ أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضَهم لبعض فتنة لِيَبْلُوَ أخبارهم، ويمتحنَ من يَتولاَّه، ويتولَّى رسُلَهُ ممن يتولَّى الشيطانَ وحزبه، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لبَعْضٍ فتْنَةً أَتَصْبرُونَ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصيراً} [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: {ذَلكَ، وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانتَصَرَ منْهُمْ وَلَكنْ ليَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ ببَعَضٍ} [محمد: ٤]، وقال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الُمجَاهدينَ منُكُمْ وَالصَّابرينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١]. فأعطى عباده الأسماعَ والأبصارَ، والعُقول والقُوَى، وأنزل عليهم كُتُبَه، وأرسلَ إليهم رسُلَه، وأمدَّهم بملائكته، وقال لهم: {أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذينَ آمَنُواْ} [الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العونِ لهم على حرب عدوهم، وأخبرهم أنَّهم إن امتثلوا ما أمرهم به، لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوِّهم، وأنه إن سلَّطه عليهم، فلتركهم بعضَ ما أُمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يُؤْيِسهُم، ولم يُقنِّطْهُمْ، بل أمرهم أن يسْتَقْبِلُوا أمرهم، ويُداووا جرَاحَهُم، ويَعُودوا إلى مُناهضة عدوهم فينصَرهم عليهم، ويُظفرَهم بهم، فأخبرهم أنه معَ المتقين منهم، ومعَ المحسنينَ، ومعَ الصابرين، ومعَ المؤمنين، وأنه يُدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوِّهم، ولولا دفاعُه عنهم، لتخطَّفهم عدوُّهم، واجتاحهم.وهذه المدافعةُ عنهم بحسب إيمانهم، وعلى قَدْرِه، فإن قَوِىَ الإيمانُ، قويت المُدافعة، فمَن وجد خيراً، فليحمَد الله، ومَن وجد غيرَ ذلكَ، فلا يلومنَّ إلا نفسه.زاد المعاد في هدي خير العباد–مؤسسة الرسالة، بيروت [٣ /٦]

الاعتبارات ..إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامي،فالعقيدة والمنهج الذي تتمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبار ات الوحيدة في الحس الإسلامي.أما الأرض – بذاتها – فلا اعتبار لها ولا وزن! وكل قيمة للأرض في التصور الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج اللّه وسلطانه فيها.وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و«دار الإسلام» ونقطة الانطلاق لتحرير «الإنسان» ..

وحقيقة أن حماية «دار الإسلام» حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج.ولكنها هي ليست الهدف النهائي.وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامي.إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة اللّه فيها.ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها،وإلى النوع الإنساني بجملته.فالنوع الإنساني هو موضوع هذا الدين،والأرض هي مجاله الكبير! وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمنهج الإلهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة،ونظام المجتمع،وأوضاع البيئة ..وهذه كلها هي التي ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة.كي يخلو له وجه الأفراد من الناس،يخاطب ضمائرهم وأفكارهم،بعد أن يحررها من الأغلال المادية ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار .

يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ «الجهاد»،وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية،فنروح نبحث للجهاد الإسلامي عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين،في ملابسات دفاعية وقتية،كان الجهاد سينطلق في طريقه سواء وجدت هذه الملابسات أم لم توجد! ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي ألا نغفل عن الاعتبار ات الذاتية في طبيعة هذا الدين وإعلانه العام ومنهجه الواقعي ..وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية ..

حقا إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له.لأن مجرد وجوده،في صورة إعلان عام لربوبية اللّه للعالمين،وتحرير الإنسان من العبودية لغير اللّه،وتمثل هذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية،وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية،لأن الحاكمية فيه للّه وحده ..إن مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله،القائمة على قاعدة العبودية

للعباد،أن تحاول سحقه،دفاعا عن وجودها ذاته.ولا بد أن يتحرك المجتمع الجديد للـــدفاع عن نفسه ..

هذه ملابسة لا بد منها.تولد مع ميلاد الإسلام ذاته.وهذه معركة مفروضة على الإســـلام فرضا،ولا خيار له في خوضها.وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينـــهما طويلا ..

هذا كله حق ..ووفق هذه النظرة يكون لا بد للإسلام أن يدافع عن وجوده.ولا بـــد أن يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضا ..

ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة ..إن من طبيعة الوجود الإســـلامي ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداء لإنقاذ «الإنسان» في «الأرض» من العبودية لغير اللّه.ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية تاركا «الإنسان» ..نوع الإنسان ..في «الأرض» ..كل الأرض ..للشر والفساد والعبودية لغير اللّه.

إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام،إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية ورضي أن يدعها وشأنها و لم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريري العام! ..ولكـــن الإســـلام لا يهادنهـــا،إلا أن تعلـــن استسلامها لسلطانه في صورة أداء الجزية،ضمانا لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية مـــن السلطات القائمة فيها.

هذه طبيعة هذا الدين،وهذه وظيفته بحكم أنه إعلان عام لربوبية اللّـــه للعـــالمين وتحريـــر الإنسان من كل عبودية لغير اللّه في الناس أجمعين! وفرق بين تصور الإسلام علـــى هـــذه الطبيعة،وتصوره قابعا داخل حدود إقليمية أو عنصرية،لا يحركه إلا خوف الاعتداء ! إنـــه في هذه الصورة الأخيرة يفقد مبرراته الذاتية في الانطلاق! إن مبررات الانطلاق الإسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج اللّه للحياة البشرية،وليس منـــهج إنسان،ولا مذهب شيعة من الناس،ولا نظام جنس من الأجناس! ..ونحن لا نبحث عـــن مبررات خارجية إلا حين تفتر في حسنا هذه الحقيقة الهائلة ..حين ننسى أن القضية هـــي قضية ألوهية اللّه وعبودية العباد ..إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم

يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامي! والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق،بين تصور أن الإسلام كان مضطرا لخوض معركة لا اختيار له فيها،بحكم وجـوده الـذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لا بد أن تهاجمه.وتصور أنه هو بذاتـه لا بـد أن يتحرك ابتداء،فيدخل في هذه المعركة ..

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة.فهو في كلتـا الحـالتين سـيدخل المعركـة حتما.ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة،تغير المشاعر والمفهومات الإسلامية تغييرا كبيرا ..خطيرا ..

إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منـهجا إلهيا،جـاء ليقـرر ألوهيـة اللّـه في الأرض،وعبودية البشر جميعا لإله واحد،ويصب هذا التقرير في قالب واقعي،هو المجتمـع الإنساني الذي يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد،بالعبودية لرب العباد،فلا تحكمهـم إلا شريعة اللّه،التي يتمثل فيها سلطان اللّه،أو بتعبير آخر تتمثل فيها ألوهيته ..فمن حقـه إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه،ليخاطب وجدان الأفراد وعقـولهم دون حـواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي،أو أوضاع الناس الاجتماعية ..إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام على هذا النحو،واعتبار ه نظاما محليا في وطن بعينه.فمن حقـه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الإقليمية! هذا تصور ..وذاك تصور ..ولو أن الإسلام في كلتا الحالتين سيجاهد ..ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهـاد وأهدافـه ونتائجه،يختلف اختلافا بعيدا،يدخل في صميم الاعتقاد كما يـدخل في صـميم الخطـة والاتجاه.

إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداء.فالإسلام ليس نحلة قوم،ولا نظام وطن،ولكنه منهج إله،ونظام عالم ..ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغل من حرية «الإنسان» في الاختيار.

وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته.إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة،المفسدة للفطرة،المقيدة لحرية الاختيار.

من حق الإسلام أن يخرج «الناس» من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده ..ليحقق إعلانه العام بربوبية اللّه للعالمين،وتحرير الناس أجمعين ..وعبادة اللّه وحده لا تتحقق – في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي – إلا في ظل النظام الإسلامي.فهو وحده النظام الذي يشرع اللّه فيه للعباد كلهم.حاكمهم ومحكومهم.أسودهم وأبيضهم.قاصيهم ودانيهم.فقيرهم وغنيهم تشريعا واحدا يخضع له الجميع على السواء ..أما في سائر الأنظمة،فيعبد الناس العباد،لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد.وهو من خصائص الألوهية.فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه فقد ادعى الألوهية اختصاصا وعملا،سواء ادعاها قولا أم لم يعلن هذا الادعاء! وأيما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية،سواء سماها باسمها أم لم يسمها! والإسلام ليس مجرد عقيدة.حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان.إنما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس.والتجمعات الأخرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو.ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرر العام.وهذا – كما قلنا من قبل – معنى أن يكون الدين كله للّه.فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته،كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد! إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر،وتحت الهجوم الاستشراقي الماكر،يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة.لأن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة.والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيدا أن هذه ليست هي الحقيقة.ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة ..ومن ثم يقوم المنافحون – المهزومون – عن سمعة الإسلام،بنفي هذا الاتهام! فيلجأون إلى تلمس المبررات الدفاعية! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته،وحقه في «تحرير الإنسان» ابتداء.
وقد غشى على أفكار الباحثين العصريين – المهزومين – ذلك التصور الغربي لطبيعة «الدين» ..وأنه مجرد «عقيدة» في الضمير لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة ..ومن ثم يكون الجهاد للدين،جهادا لفرض العقيدة على الضمير! ولكن الأمر ليس كذلك في الإسلام.فالإسلام منهج اللّه للحياة البشرية.وهو منهج يقوم على إفراد اللّه وحده

بالألوهية – متمثلة في الحاكمية – وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام.أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتنـــاع،في ظـــل النظام العام،بعد رفع جميع المؤثرات ..ومن ثم يختلف الأمر من أساسه،وتصبح له صـــورة جديدة كاملة.وحيثما وجد التجمع الإسلامي،الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي،فإن اللّه يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام.مع ترك مسألة العقيدة الوجدانيـــة لحرية الوجدان ..فإذا كف اللّه أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد،فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ.مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة.وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة،في المراحل التاريخية المتجـــددة.ولا نخلـــط بـــين دلالالتها المرحلية،والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل.[٨٢]

إنَّ الأصل العام هو إعلان الإسلام العام بتحرير الإنسان من العبودية لغير اللّـــه وبتقريـــر ألوهية اللّه في الأرض وتحطيم الطواغيت التي تعبد الناس،وإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده ..وقريش كانت هي الطاغوت المباشر الذي يحول بـــين النـــاس في الجزيرة وبين التوجه إلى عبادة اللّه وحده والدخول في سلطانه وحده.فلم يكـــن بـــد أن يناجز الإسلام هذا الطاغوت،تمشيا مع خطته العامة وانتصافا في الوقت ذاته مـــن الظلـــم والطغيان اللذين وقعا بالفعل على المسلمين الكرام ووقاية كذلك لدار الإسلام في المدينـــة من الغزو والعدوان ..وإن كان ينبغي دائما ونحن نقرر هذه الأسباب المحليـــة القريبـــة أن نتذكر – ولا ننسى – طبيعة هذا الدين نفسه وخطته التي تحتمها طبيعته هـــذه.وهـــي ألا يترك في الأرض طاغوتا يغتصب سلطان اللّه ويعبد الناس لغير ألوهيته وشرعه بحال مـــن الأحوال![٨٣]

ولا بد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين:

أولهما:دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الـــدين،ويعلنون تحـــررهم مـــن حاكميـــة الإنسان،ويرجعون بعبوديتهم للّه وحده،ويخرجون من العبودية للعبيد في جميـــع الصـــور

---

[٨٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٩٣٨]

[٨٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٩٥٥]

والأشكال ..وهذا لا يتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمع حركي تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام،وتنفذه في عالم الواقع،وتجاهد كل طاغوت يعتدي بالأذى والفتنة على معتنقي هذا الدين،أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه ..

وثانيهما:تحطيم كل قوة في الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر – في صورة من الصور – وذلك لضمان الهدف الأول،ولإعلان ألوهية اللّه وحدها في الأرض كلها،بحيث لا تكون هناك دينونة إلا للّه وحده – فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان اللّه – وليس هو مجرد الاعتقاد ..

ولا بد هنا من بيان الشبهة التي قد تحيك في الصدور من هذا القول،على حين أن اللّه سبحانه يقول:«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» ..

ومع أن فيما سبق تقريره عن طبيعة الجهاد في الإسلام – وبخاصة فيما اقتطفناه من كتاب:«الجهاد في سبيل اللّه» للأستاذ أبي الأعلى المودودي،ما يكفي للبيان الواضح ..إلا أننا نزيد الأمر إيضاحا،وذلك لكثرة ما لبس الملبسون ومكر الماكرون من أعداء هذا الدين! إن الذي يعنيه هذا النص:«ويكون الدين كله للّه» ..هو إزالة الحواجز المادية،المتمثلة في سلطان الطواغيت،وفي الأوضاع القاهرة للأفراد،فلا يكون هناك – حينئذ – سلطان في الأرض لغير اللّه،ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان اللّه ..فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفرادا يختارون عقيدتهم أحرارا من كل ضغط.على ألا تتمثل العقيدة المخالفة للإسلام في تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين،ويحول بها دون اهتداء من يرغبون في الهدى،ويفتن بها الذين يتحررون فعلا من كل سلطان إلا سلطان اللّه ..إن الناس أحرار في اختيار عقيدتهم،على أن يعتنقوا هذه العقيدة أفرادا،فلا يكونون سلطة قاهرة يدين لها العباد.فالعباد لا يدينون إلا لسلطان رب العباد.

ولن تنال البشرية الكرامة التي وهبها لها اللّه،ولن يتحرر «الإنسان» في «الأرض»،إلا حين يكون الدين كله للّه،فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه.

ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة:«حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» ..

فمن قبل هذا المبدأ وأعلن استسلامه له،قبل منه المسلمون إعلانه هـــذا واستســـلامه،و لم يفتشوا عن نيته وما يخفي صدره،وتركوا هذا للّه:«فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان اللّه قاتله المسلمون معتمدين على نصرة اللّـــه:«وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ.نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» ..

هذه تكاليف هذا الدين وهذه هي جديته وواقعيته وإيجابيته وهو يتحرك لتحقيق ذاتـــه في عالم الواقع ولتقرير ألوهية اللّه وحده في دنيا الناس ..

إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة! وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى! كما أنه ليس مجـــرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه! إن هذا الدين إعـــلان عـــام لتحريـــر الإنسان ..وهو منهج حركي واقعي،يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة ..

يواجه حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان ..ويواجه حـــواجز الأوضـــاع والســـلطة بالجهاد المادي لتحطيم سلطان الطواغيت وتقرير سلطان اللّه ..

والحركة بهذا الدين حركة في واقع بشري.والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صـــراع نظري يقابل بنظرية! إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع وسلطة،ولا بد – كي يقابلها هذا الدين بوسائل مكافئة – أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة.ولا بد بعد ذلـــك أن يجاهـــد ليكون الدين كله للّه،فلا تكون هناك دينونة لسواه.

هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجابي لهذا الدين ..لا ما يقوله المهزومون والمخـــدوعون ..ولو كانوا من المخلصين الطيبين الذين يريدون أن يكونوا من «المسلمين»،ولكن تغيم في عقولهم وفي قلوبهم صورة هذا الدين! ..[٨٤]

إن المهزومين في هذا الزمان أمام الواقع البائس لذراري المسلمين – الذين لم يبق لهم مـــن الإسلام إلا العنوان – وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على أصـــل الجهـــاد في الإســـلام يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهربا من الحقيقة التي يقـــوم عليهـــا الانطـــلاق الإسلامي في الأرض لتحرير الناس كافة من عبادة العباد،وردهم جميعا إلى عبـــادة اللّـــه

[٨٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٤١]

وحده وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التي تقهرهم على عبادة غير اللّه،والخضوع لسلطان غير سلطانه،والتحاكم إلى شرع غير شرعه ..

ومن ثم نراهم يقولون مثلا:إن اللّه سبحانه يقول:«وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» ..

ويقول:«لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ» ..

ويقول:«وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» ...ويقول عن أهل الكتاب:{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) } [آل عمران:٦٤]..

فالإسلام إذن لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام في داخل حدود هذه الدار أو الذين يهددونها من الخارج! وأنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين.وأنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها! ومعنى ذلك - في تصورهم المهزوم - أن لا علاقة للإسلام إذن بسائر البشر في أنحاء الأرض.ولا عليه أن يعبدوا ما يعبدون من دون اللّه.ولا عليه أن يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه في الأرض كلها ما دام هو آمنا داخل حدوده الاقليمية! وهو سوء ظن بالإسلام وسوء ظن باللّه - سبحانه! - تمليه الهزيمة أمام الواقع البائس النكد الذي يواجههم،وأمام القوى العالمية المعادية التي لا طاقة لهم بها في اللحظة الحاضرة! وهان الأمر لو أنهم حين يهزمون روحيا أمام هذه القوى لا يحيلون هزيمتهم إلى الإسلام ذاته ولا يحملونه على ضعف واقعهم الذي جاءهم من بعدهم عن الإسلام أصلا! ولكنهم يأبون إلا أن يحملوا ضعفهم هم وهزيمتهم على دين اللّه القوي المتين! إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معينا.وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة.وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام.ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى وأن هذه هي نهاية خطوات هذا

الدين ..إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدما في تحسين ظروفها وفي إزالة العوائق من طريقها،حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة،والتي كانت تواجه واقعا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية.

إن النصوص الأخيرة تقول في شأن المشركين:« بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ،وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ.وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ،فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ،وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ.إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً،وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً،فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ.فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ،فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ،ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ»..

وتقول في شأن أهل الكتاب:«قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ،وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ،حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ» ..

فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام فهم – اللحظة وموقتا – غير مكلفين بتحقيقها – ولا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها – ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عند ما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها ..ولكن عليهم ألا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية.وعليهم ألا يحملوا ضعفهم الحاضر على دين اللّه القوي المتين.وعليهم أن يتقوا اللّه في مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام! إنه دين السلم والسلام فعلا،ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلها من عبادة غير اللّه،وإدخال البشرية كافة في السلم كافة ..إنه منهج اللّه هذا الذي يراد البشر على الارتفاع إليه،والاستمتاع

بخيره وليس منهج عبد من العبيد ولا مذهب مفكر من البشر حتى يخجل الداعون إليه من إعلان أن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوى التي تقف في سبيله لإطلاق الحرية للنـــاس أفرادا في اختياره ..

إنه حين تكون المذاهب التي يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد وحـــين تكـــون الأنظمة والشرائع التي تصرف حياتهم من وضع العبيد أيضا.فإنه في هذه الحالة يصبح لكل مذهب ولكل نظام الحق في أن يعيش داخل حدوده آمنا،ما دام أنه لا يعتدي على حدود الآخرين،ويصبح من حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفـــة أن تتعـــايش وألا يحاول أحدها إزالة الآخر! فأما حين يكون هناك منهج إلهـــي وشـــريعة ربانية،ووضـــع العبودية فيه للّه وحده وتكون إلى جانبه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر العبودية فيها للعباد ..فإن الأمر يختلف من أساسه.ويصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحـــواجز البشرية ويحرر البشر من العبودية للعباد ويتركهم أحرارا في اختيار العقيدة التي يختاروها في ظل الدينونة للّه وحده.

والمهزومون الذين يحاولون أن يلووا أعناق النصوص ليا ليخرجوا من الحرج الذي يتوهمونه في انطلاق الإسلام وراء حدوده الأولى ليحرر البشر في الأرض كلها من العبوديـــة لغـــير اللّه.ينسون هذه الحقيقة الكبرى ..

وهي أن هناك منهجا ربانيا العبودية فيه للّه وحده يواجه مناهج بشـــرية العبوديـــة فيهـــا للعبيد!!! إن للجهاد المطلق في هذا الدين مبرراته النابعة من ذات المنهج الإلهي فليراجعهـــا المهزومون الذين يحملون هزيمتهم وضعفهم على هذا الدين.

لعل اللّه أن يرزقهم القوة من عنده وأن يجعل لهم الفرقان الذي وعد به عباده المتقين! [٨٥].

ولذين يكتبون اليوم عـــن العلاقـــات الدوليـــة في الإســـلام،وعن أحكـــام الجهـــاد في الإسلام،والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام،يتعـــاظمهم ويهـــولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام! وأن يكون اللّه – سبحانه – قد أمر الـــذين آمنـــوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار،وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار،كلما وجد هناك

---

[٨٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١٣٥]

من يلونهم من الكفار! ..يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمــر الإلهــي هكــذا،فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة! إننــا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو ..

إنهم ينسون أن الجهاد في الإسلام جهاد في «سبيل اللّه» ..جهاد لتقرير ألوهيــة اللّــه في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان اللّه ..جهاد لتحرير «الإنسان» من العبودية لغير اللّه،ومن فتنته بالقوة عن الدينونة للّه وحده والانطلاق من العبودية للعبــاد ..«حَتَّــى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» ..وأنه ليس جهادا لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله.إنما هو جهاد لتغليب منهج اللّه على مناهج العبيد! وليس جهــادا لتغليــب سلطان قوم على سلطان قوم،إنما هو جهاد لتغليب سلطان اللّه على سلطان العبيد! وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد،إنما هو جهاد لإقامة مملكة اللّه في الأرض ..ومن ثم ينبغي لــه أن ينطلق في «الأرض» كلها،لتحرير «الإنسان» كله.بلا تفرقة بين ما هو داخل في حــدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها ..فكلها «أرض» يسكنها «الإنســان» وكلــها فيهــا طواغيت تعبد العباد للعباد! وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعــا أن ينطلــق منــهج ليكتسح كل المناهج،وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم ..إنها في هذا الوضع لا تستساغ! وهي فعلا لا تستساغ! ..لولا أن الأمر ليس كذلك.وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية.فليس لواحد منها أن يقول:

إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجــه أنظمــة بشرية ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعا من ذلة العبودية للعبــاد ويرفع البشر جميعا إلى كرامة العبودية للّه وحده بلا شــريك! ثم إنــه يهــولهم الأمــر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوما صليبيا منظما لئيما ماكرا خبيثا يقول لهم:إن العقيــدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف،وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإســلامية وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد! والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستســاغة ..لــولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق ..إن الإسلام يقوم على قاعدة:«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَــدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» ..ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهدا ولما ذا اشترى اللّــه مــن

المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة «يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»؟ ..إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد ..بل لأمر مناقض تماما للإكراه على العقيدة ..إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد! ..لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد يواجه دائما طواغيت في الأرض يخضعون العباد للعباد.ويواجه دائما أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة الدولة أو قوة تنظيمية في صورة من الصور وتحول دون الناس في داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم،أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل ..وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله ..

ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة،ويدمر هذه القوى التي تحميها ..ثم ماذا؟ ..ثم يترك الناس – بعد ذلك – أحرارا حقا في اختيار العقيدة التي يريدونها.إن شاءوا دخلوا في الإسلام،فكان لهم ما للمسلمين من حقوق،وعليهم ما عليهم من واجبات،وكانوا إخوانا في الدين للسابقين في الإسلام! وإن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية،إعلانا عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة ومشاركة منهم في نفقات الدولة المسلمة التي تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد،وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء.

إن الإسلام لم يكره فردا على تغيير عقيدته كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبح وتقتل وتبيد شعوبا بأسرها – كشعب الأندلس قديما وشعب زنجبار حديثا – لتكرههم على التنصر.وأحيانا لا تقبل منهم حتى التنصر،فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون ..وأحيانا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية ..وقد ذهب مثلا اثنا عشر ألفا من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة إذ أحرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانبثاق الروح القدس من الآب فقط،أو من الآب والابن معا! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية،أو طبيعة لاهوتية ناسوتية ..إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية! وأخيرا فإن صورة الانطلاق في الأرض

لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار قمول المهزومين روحيا في هذا الزمان وتتعاظمهم لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر ..وهو يهول فعلا! ..فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين،وهم شعوب مغلوبة على أمرها أو قليلة الحيلة عموما! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعا بالقتال،حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه؟! إنه لأمر لا يتصور عقلا ..ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر اللّه فعلا! ولكن فات هؤلاء جميعا أن يروا متى كان هذا الأمر؟ وفي أي ظرف؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم اللّه دانت لها الجزيرة العربية ودخلت في هذا الدين،ونظمت على أساسه.وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التي باعت أنفسها للّه بيعة صدق،فنصرها اللّه يوما بعد يوم،وغزوة بعد غزوة،ومرحلة بعد مرحلة ..وأن الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم بعث اللّه محمدا – ﷺ– ليدعو الناس – في جاهليتهم – إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه.فجاهد والقلة التي معه حتى قامت الدولة المسلمة في المدينة.وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة ..وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول ..ثم يصلوا – يوم أن يصلوا – إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن اللّه ..ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغثاء الذي تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء والذي تتقاسمه الرايات القومية والجنسية والعنصرية.ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التي ترفع راية:لا إله إلا اللّه.ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعارا،ولا تتخذ لها مذهبا ولا منهجا من صنع العبيد في الأرض إنما تنطلق باسم اللّه وعلى بركة اللّه.

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين،وهم في مثل ما هم فيه من الهزال! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون في حركة تستهدف تقرير ألوهية اللّه وحده في الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت!

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين،الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة!

إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق.وحفظ ما في متون الكتب.والتعامـــل مـــع النصوص في غير حركة،لا يؤهل لفقه هذا الدين،و لم يكن مؤهلا له في يوم من الأيام![٨٦]



[٨٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٥٨]

قال تعالى:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنفال:٤١]

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ طَرِيقَةَ قِسْمَةِ المَغَانِمِ التِي يَغْنَمُها المُسْلِمُونَ فِي الحَرْبِ.وَالغَنِيمَةَ هِيَ المَالُ المَأْخُوذُ مِنَ الكُفَّارِ بِإِيجَافِ خَيْلٍ وَرِكَابٍ.أَمَّا الفَيْءُ فَهُوَ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ (أَيْ بُدُونِ حَرْبٍ أَوْ بِدُونِ خُرُوجِ جُيُوشِ المُسْلِمِينَ إِلَى الأَعْدَاءِ:كَالأَمْوَالِ التِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا،أَوْ يَمُوتُونَ عَنْهَا دُونَ وَارِثٍ لَهُمْ،وَالخَرَاجِ وَنَحْوِ ذَلِكَ) .

يَقُولُ تَعَالَى:اعْلَمُوا يَا أَيُّها المُؤْمِنُونَ أَنَّ كُلَّ مَا غَنِمْتُمُوهُ مِنَ الكُفَّارِ المُحَارِبِينَ فَاجْعَلُوا أَوَّلاً خُمْسَهُ للهِ تَعَالَى لِيُنْفِقَ فِيمَا يُرْضِيهِ مِنْ مَصَالِحِ الدِّينِ العَامَّةِ:كَالدَّعْوَةِ لِلإِسْلاَمِ وَإِقَامَةِ شَعَائِرِه،وَعِمَارَةِ الكَعْبَةِ وَكِسْوَتِها،ثُمَّ أَعْطُوا مِنْهُ لِلرَّسُولِ كِفَايَتَهُ لِنَفْسِه وَنِسَائِه مُدَّةَ سَنَةٍ،ثُمَّ أَعْطُوا مِنْهُ ذَوِي القُرْبَى مِنْ أَهْلِه وَعَشِيرَتِه نَسَباً وَوَلاءً (وَقَدْ خَصَّ الرَّسُولُ ﷺ ذَلِكَ بِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أَخِيه المُطَّلِبِ المُسْلِمِينَ)،ثُمَّ المُحْتَاجِينَ مِنْ سَائِرِ المُسْلِمِينَ،وَهُمُ اليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ،وَابْنُ السَّبِيلِ (وَهُوَ المُجْتَازُ الذِي نَفِدَتْ نَفَقَتُهُ).وَهَذا الخُمْسُ يُدْفَعُ لِلإِمَامِ (بَعْدَ الرَّسُولِ) لِيَصْرِفَهُ فِي الوُجُوهِ المُبَيَّنَةِ فِي الآيَةِ .

وَاليَتَامَى – هُمْ أَيْتَامُ المُسْلِمِينَ – وَقِيلَ:إِنَّ النَّصَّ عَامٌّ يَعُمُّ الأَغْنِيَاءَ مِنَ الأَيْتَامِ وَالفُقَرَاءَ .

المَسَاكِين – هُمُ المُحْتَاجُونَ الذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يَسُدُّونَ بِه خَلَّتَهُمْ .

وَابْنِ السَّبِيلِ – هُوَ المُسَافِرُ أَوْ المُرِيدُ السَّفَرَ مَسَافَةَ القَصْرِ (أَيْ المَسَافَةُ التِي يُبَاحُ فِيهَا قَصْرُ الصَّلاَةِ) وَلَيْسَ لَهُ مَا يُنْفِقُهُ فِي سَفَرِه .

أَمَّا الأَخْمَاسُ الأَرْبَعَةُ البَاقِيَةُ فَهِيَ لِلْمُقَاتِلِينَ فَاعْلَمُوا ذَلِكَ،وَاعْمَلُوا بِه،إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ حَقّاً،وَآمَنْتُمْ بِمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ آيَاتِ التَّثْبِيتِ وَالمَدَدِ يَوْمَ الفُرْقَانِ الذِي

فَرَقْنَا فِيهِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ،وَالإِيمَانِ وَالكُفْرِ،وَهُوَ اليَوْمُ الذِي الْتَقَى فِيهِ جَمْعُكُمْ مَعْ جَمْـــعِ المُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ،وَاللهُ عَظِيمُ القُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيءٍ .[87]

نقف أمام وصف اللّه – سبحانه – لرسوله – ﷺ- بقوله:«عبدنا» في هذا الموضع الـــذي يرد إليه فيه أمر الغنائم كلها ابتداء،وأمر الخمس المتبقي أخيرا:«إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّـــهِ،وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ» ..

إنه وصف موح ..إن العبودية للّه هي حقيقة الإيمان وهي في الوقت ذاتـــه أعلـــى مقـــام للإنسان يبلغ إليه بتكريم اللّه له فهي تجلى وتذكر في المقام الذي يوكل فيه إلى رسول اللّه – ﷺ- التبليغ عن اللّه،كما يوكل إليه فيه التصرف فيما خوله اللّه.

وإنه لكذلك في واقع الحياة! إنه لكذلك مقام كريم ..أكرم مقام يرتفع إليه الإنسان ..

إن العبودية للّه وحده هي العاصم من العبودية للهوى،والعاصم من العبودية للعباد ..ومـــا يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له،إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم مـــن العبودية لسواه.

إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا للّه وحده،يقعون مـــن فـــورهم ضـــحايا لأحـــط العبوديات الأخرى.يقعون من فورهم عبيدا لهواهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خص اللّه بها نوع «الإنسان» من بـــين ســـائر الأنـــواع وينحدرون في سلم الدواب فإذا هم شر الدواب،وإذا هم كالأنعام بل هم أضل،وإذا هـــم أسفل سافلين بعد أن كانوا – كما خلقهم اللّه – في أحسن تقويم.

كذلك يقع الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا للّه في شر العبوديات الأخـــرى وأحطهـــا ..يقعون في عبودية العبيد من أمثالهم،يصرفون حياتهم وفق هواهم،ووفق ما يبدو لهم مـــن نظريات واتجاهات قصيرة النظر،مشوبة بحب الاستعلاء،كما هي مشوبة بالجهل والـــنقص والهوى! ويقعون في عبودية «الحتميات» التي يقال لهم:إنه لا قبل لهم بها،وإنه لا بد من أن يخضعوا لها ولا يناقشوها ..«حتمية التاريخ» ..و«حتمية الاقتصاد» ..و«حتمية التطور»

[87] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

وسائر الحتميات المادية التي تمرغ جبين «الإنسان» في الرغام وهو لا يملك أن يرفعه،ولا أن يناقش في عبوديته البائسة الذليلة هذه الحتميات الجبارة المذلة المخيفة! [٨٨]

وقال تعالى:«لَنْ يَسْتَنْكفَ الْمَسيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للَّه – وَلَا الْمَلائكَةُ الْمُقَرَّبُونَ – وَمَنْ يَسْتَنْكفْ عَنْ عبادَته وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْه جَميعاً.فَأَمَّا الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحات فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ منْ فَضْله وَأَمَّا الَّذينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَليماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ منْ دُون اللَّه وَلِيًّا وَلا نَصيراً».

لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية اللّه سبحانه وحدانية لا تتبلس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور وعني بتقرير أن اللّه – سبحانه – ليس كمثله شيء.فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية.كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين اللّه – سبحانه – وكل شيء (بما في ذلك كل حي) وهي أنها صلة ألوهية وعبودية.ألوهية اللّه،وعبودية كل شيء للّه ..والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق – أو هذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه – بحيث لا تدع في النفس ظلا من شك أو شبهة أو غموض.

ولقد عني الإسلام كذلك بأن يقرر أن هذه هي الحقيقة التي جاء بها الرسل أجمعون.فقررها في سيرة كل رسول،وفي دعوة كل رسول وجعلها محور الرسالة من عهد نوح عليه السلام،إلى عهد محمد خاتم النبيين – عليه الصلاة والسلام – تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ..

وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية – وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة – يكون منهم من يحرف هذه الحقيقة وينسب للّه – سبحانه – البنين والبنات أو ينسب للّه – سبحانه – الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم اقتباسا من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات! ألوهية وعبودية ..ولا شيء غير هذه الحقيقة.ولا قاعدة إلا هذه القاعدة.ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية،وصلة العبودية بالألوهية ..

---

[٨٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٥٢] ويراجع بتوسع كتاب:«التطور والثبات في حياة البشرية» وكتاب:«جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب.«دار الشروق».

ولا تستقيم تصورات الناس – كما لا تستقيم حياتهم – إلا بتمحيض هذه الحقيقة من كل غبش،ومن كل شبهة،ومن كل ظل! أجل لا تستقيم تصورات الناس،ولا تستقر مشاعرهم،إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم ..هو إله لهم وهم عبيده ..هو خالق لهم وهم مخاليق ..هو مالك لهم وهم مماليك ..وهم كلهم سواء في هذه الصلة،لا بنوة لأحد.ولا امتزاج بأحد ..ومن ثمّ لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه:التقوى والعمل الصالح ..وهذا في مستطاع كل أحد أن يحاوله.فأما البنوة،وأما الامتزاج فانى بهما لكل أحد؟! ولا تستقيم حياتهم وارتباطاتهم ووظائفهم في الحياة،إلا حين تستقر في أخلادهم تلك الحقيقة:أنهم كلهم عبيد لرب واحد ..ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد ..فأما القربى إليه ففي متناول الجميع ..عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان،لأنهم متساوون في موقفهم من صاحب السلطان ..وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة في الوساطة بين اللّه والناس وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لفرد أو لمجموعة أو لسلسلة من النسب لطائفة من الناس ..وبغير هذا لا تكون هناك مساواة أصيلة الجذور في حياة بني الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم في هذا النظام! فالمسألة – على هذا – ليست – مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركين،فحسب،إنما هي كذلك مسألة نظام حياة،وارتباطات مجتمع،وعلاقات أمم وأجيال من بني الإنسان.

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام ..ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد،بالعبودية لرب العباد ..ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام «كنيسة» تستذل رقاب الناس،بوصفها الممثلة لابن اللّه،أو للأقنوم المتمم للأقانيم الإلهية المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم.و لم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم «بالحق الإلهي» زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من اللّه!

وقد ظلّ «الحق المقدس» للكنيسة والبابوات في جانب وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقا مقدسا كحق الكنيسة في جانب ..ظل هذا الحق أو ذاك قائما في أوربا باسم (الابن)

أو مركب الأقانيم.حتى جاء «الصليبيون» إلى أرض الإسلام مغيرين.فلما ارتدوا أخـــذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على «الحق المقدس» وكانت فيمـــا بعـــد ثـــورات «مارتن لوثر» و«كالفن» و«زنجلي» المسماة بحركة الإصلاح ..على أساس مـــن تـــأثير الإسلام،ووضوح التصور الإسلامي،ونفي القداسة عن بني الإنسان ونفـــي التفـــويض في السلطان ..لأنه ليست هنالك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام ..[٨٩]

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته وألوهيـــة روح القـــدس (أحـــد الأقانيم) وفي كل أسطورة عن بنوة أحد للّه،أو ألوهية أحد مع اللّه،في أي شـــكل مـــن الأشكال ..يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى بن مريم عبـــد للّـــه وأنـــه لـــن يستنكف أن يكون عبدا للّه.وأن الملائكة المقربين عبيد للّه وأهم لن يستنكفوا أن يكونـــوا عبيدا للّه.وأن جميع خلائقه ستحشر إليه.وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم.وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم:«لَنْ يَسْتَنْكفَ الْمَسِـــيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للَّه – وَلَا الْمَلائكَةُ الْمُقَرَّبُونَ – وَمَنْ يَسْتَنْكفْ عَـــنْ عبادَتـــه وَيَسْـــتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْه جَميعاً.فَأَمَّا الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحات فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيـــدُهُمْ منْ فَضْله.وَأَمَّا الَّذينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَليماً،وَلا يَجدُونَ لَهُمْ مـــنْ دُونِ اللَّه وَلِيًّا وَلا نَصيراً».

إن المسيح عيسى بن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبدا للّه.لأنه – عليه السلام – وهو نبي اللّه ورسوله – خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وأهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان.وهو خير من يعرف أنه من خلق اللّه فلا يكون خلق اللّه كاللّه أو بعضا من اللّه! وهو خير من يعرف أن العبودية للّه – فضلا على أها الحقيقة المؤكدة الوحيدة – لا تنقص من قدره.فالعبودية للّه مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء.وهي المرتبـــة الـــتي يصف اللّه بها رسله،وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده ..وكذلك الملائكة المقربـــون – وفيهم روح القدس جبريل – شأهم شأن عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء – فما بـــال

[٨٩] – يراجع فصل «التوحيد» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».

جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة؟! مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً»..

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر اللّه لهم بسلطانه ..سلطان الألوهية على العباد ..شأنهم في هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين للّه ..

فأما الذين عرفوا الحق،فأقروا بعبوديتهم للّه وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

«وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ..

وما يريد اللّه – سبحانه – من عباده أن يقروا له بالعبودية،وأن يعبدوه وحده،لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم،ولا لأنها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء.ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،لتصح تصوراتهم ومشاعرهم،كما تصح حياتهم وأوضاعهم.فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر،ولا أن تستقر الحياة والأوضاع،على أساس سليم قويم،إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار،وما يتبع الإقرار من آثار ..يريد اللّه – سبحانه – أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بيناها في نفوس الناس وفي حياتهم.ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.ليعرفوا من صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض فلا يخضعوا إلا له،وإلا لمنهجه وشريعته للحياة،وإلا لمن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه.يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد ليرفعوا جباههم أمام كل من عداه حين تعنو له وحده الوجوه والجباه.يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة،حين يخرون له راكعين ساجدين يذكرون اللّه ولا يذكرون أحدا إلا اللّه.يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب.ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى اللّه.يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،فتكون لهم غيرة على سلطان اللّه في الأرض أن يدعيه المدعون باسم اللّه أو باسم غير اللّه فيردون الأمر كله للّه ..ومن ثم تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس ...

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة وتعليق أنظار البشر للّه وحده وتعليق قلوبهم برضاه وأعمالهم بتقواه ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه ..إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به في الأرض ..في هذه الحياة ..فأما ما يجزي اللّه به المؤمنين المقرين بالعبودية العاملين للصالحات،في الآخرة،فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر.وفيض من عطاء اللّه.

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان باللّه في الصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها ودعوة الرسل جميعا قبل أن يحرفها الأتباع،وتشوهها الأجيال ..يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلادا جديدا للإنسان تتوافر له معه الكرامة والحرية،والعدل والصلاح،والخروج من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده في الشعائر وفي نظام الحياة سواء.والذين يستنكفون من العبودية للّه،يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي ..يذلون لعبودية الهوى والشهوة.أو عبودية الوهم والخرافة.ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم،ويحنون لهم الجباه.ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيدا مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام اللّه ..ولكنهم يتخذونهم آلهة لهم من دون اللّه ..هذا في الدنيا ..أما في الآخرة «فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ..

إنها القضية الكبرى في العقيدة السماوية تعرضها هذه الآية في هذا السياق في مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى في ذلك الزمان.وفي مواجهة الانحرافات كلها إلى آخر الزمان ..[٩٠]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٩٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٥١]

إنَّ الذي يراجع أحداث السيرة النبوية ووقائعها،ليرى من خلالها الواقع التاريخي للمنهج الحركي الإسلامي،ويراجع كذلك طبيعة هذا المنهج في ذاته ومراحله وأهدافه ..يرى بوضوح أن هذه الخطوة الحاسمة في العلاقات بين المعسكر الإسلامي في الجزيرة وسائر معسكرات المشركين – وكذلك بينه وبين معسكرات أهل الكتاب التي تقررت في هذه السورة – كان قد جاء موعدها،وتمهدت لها الأرض،وتهيأت لها الأحوال،وأصبحت هي الخطوة الطبيعية في أوانها المحتوم».

كانت التجربة تلو التجربة قد كشفت عن القانون الحتمي الذي يحكم العلاقات بين المجتمع المسلم الذي يفرد اللّه سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والحاكمية والتشريع والمجتمعات الجاهلية التي تجعل هذا كله لغير اللّه،أو تجعل فيه شركاء للّه ..هذا القانون الحتمي هو قانون الصراع الذي يعبر عنه قول اللّه سبحانه:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً» ..(الحج:٤٠) والذي يقول عنه سبحانه كذلك:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» ..(البقرة:٢٥١)

وقد ظهرت آثار هذا القانون الحتمي في ظاهرتين بارزتين:

إحداهما:انطلاق الإسلام خطوة بعد خطوة،وغزوة بعد غزوة،ومرحلة بعد مرحلة لنشر منهج اللّه في الأرض حوله وإبلاغ كلمة اللّه إلى أرض بعد أرض وإلى قبيلة بعد قبيلة – في طريقه إلى إبلاغها إلى الناس كافة وإزالة الحواجز المادية التي تحول دون هذا الإعلان العام والبلوغ إلى كل بني الإنسان – حتى فتحت مكة،وخضدت شوكة قريش العقبة الكبرى في طريق الزحف الإسلامي،واستسلمت هوازن وثقيف في الطائف أقوى القبائل بعد قريش في طريق هذا الزحف.وأصبحت للإسلام قوته التي ترهب عدوه وتسمح بالقيام بالخطوة النهائية الحاسمة في الجزيرة – تمهيدا لما وراءها من أرض اللّه حسبما تتهيأ الظروف الملائمة لكل خطوة تالية،حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه.

وثانيتهما:نقض العهود التي كانت المعسكرات الجاهلية تعقدها مع المسلمين – في ظروف مختلفة – عهدا بعد عهد بمجرد أن تتاح لها فرصة نقضها،وعند أول بـادرة تشـير إلى أن المعسكر الإسلامي في ضائقة تهدد وجوده أو على الأقل تجعل هذا النقض مأمون العاقبـة على ناقضيه من المشركين – ومن أهل الكتاب من قبلهم – فما كانت هذه العهود – إلا نادرا – عن رغبة حقيقية في مسالمة الإسلام ومهادنة المسلمين إنما كانت عـن اضـطرار واقعي إلى حين!

فما تطيق المعسكرات الجاهلية طويلا أن ترى الإسلام ما يزال قائما حيالها مناقضا في أصل وجوده لأصل وجودها مخالفا لها مخالفة جذريـة أصـيلة في الصـغيرة والكـبيرة مـن مناهجها،يهدد بقاءها بما في طبيعته من الحق والحيوية والحركـة والانطـلاق لتحطـيم الطاغوت كله،ورد الناس جميعا إلى عبادة اللّه وحده.

وهذه الظاهرة الأخيرة والقاعدة الأصيلة التي تقوم عليها هي التي يقررها اللّه سـبحانه في قوله عن المشركين:« وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» ...(البقرة:٢١٧)

والتي يقول فيها عن أهل الكتاب:«وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» ..(البقرة:١٠٩)

ويقول فيها كذلك:«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ..(البقرة:١٢٠)

فيعلن – سبحانه – بهذه النصوص القطعية عن وحدة الهدف بـين جميـع معسـكرات الجاهلية تجاه الإسلام والمسلمين وعن قوة الإصرار على هذا الهـدف وامتـدادها عـبر الزمان،وعدم توقيتها بظرف أو زمان! وبدون إدراك ذلك القـانون الحتمـي في طبيعـة العلاقات بين التجمع الإسلامي والتجمعات الجاهلية،وتفسير الظواهر التي تنشـأ عنـه – على مدار التاريخ – بالرجوع إليه،لا يمكن فهم طبيعة الجهاد في الإسلام ولا طبيعة تلـك الصراعات الطويلة بين المعسكرات الجاهلية والمعسكر الإسلامي.ولا يمكن فهم بواعـث المجاهدين الأوائل،ولا أسرار الفتوحات الإسلامية ولا أسرار الحروب الوثنية والصليبية التي

لم تفتر قط طوال أربعة عشر قرنا والتي ما تزال مشبوبة علـــى ذراري المســـلمين – وإن كانوا لسوء حظهم تخلوا عن حقيقة الإسلام و لم يبق لهم منه إلا العنوان – في المعسكرات الشيوعية والوثنية والصليبية كلها:في روسيا والصـــين ويوغســـلافيا وألبانيـــا.وفي الهنـــد وكشمير.وفي الحبشة وزنجبار وقبرص وكينيا وجنوب افريقية والولايات المتحدة ..

وذلك فوق عمليات السحق الوحشية البشعة لطلائع البعث الإسلامي في كل مكـــان في العالم الإسلامي – أو الذي كان إسلاميا بتعبير أدق – وتعاون الشيوعية والوثنية والصليبية مع الأوضاع التي تتولى سحق هذه الطلائع،ومد يد الصداقة إليها،وإمدادها بالمعونات التي تبلغ حد الكفالة،وإقامة ستار من الصمت حولها وهي تسحق هذه الطلائع الكريمـــة! إن شيئا من هذا كله لا يصبح مفهوما بدون إدراك ذلك القانون الحتمي والظواهر التي يتجلى فيها ..

وقد تجلى ذلك القانون – كما أسلفنا – قبيل نزول سورة التوبة وبعد فتح مكة في هاتين الظاهرتين اللتين أسلفنا الحديث عنهما.وظهر بوضوح أنه لا بد من اتخاذ تلـــك الخطـــوة الحاسمة في الجزيرة سواء تجاه المشركين – وهو ما نواجهه في هذا المقطع من السورة – أو تجاه أهل الكتاب،وهو ما سنواجهه في المقطع التالي مباشرة والذي بعده ..

ولكن وضوح ذلك كله للقيادة المسلمة – حينذاك – لم يكن معناه وضـــوحه – بـــنفس الدرجة – لكل الجماعات والطوائف في المجتمع المسلم.وبخاصة لحديثي العهـــد بالإيمـــان والمؤلفة قلوبهم،فضلا على ضعاف القلوب والمنافقين! كان في المجتمع المسلم – ولعل بعض هؤلاء من كرام المسلمين وخيارهم – من يتحرج من إنهاء العهود مع المشركين جميعـــا – بعد أربعة أشهر للناكثين ومن لهم عهود غير موقتة ومن لم يحاربوا المسلمين ولو من غـــير عهد ومن لهم عهود أقل من أربعة وبعد انقضاء الأجل لمن لهم عهود موقوتة و لم ينقصـــوا المسلمين شيئا و لم يظاهروا عليهم أحدا – ولئن كانوا يستسيغون نبذ عهـــود النـــاكثين والذين تخاف منهم الخيانة،كما سبق في الحكم المرحلي الذي تضمنته سورة الأنفال:«وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ» ..(الأنفـــال:٥٨) فإن إنهاء عهود غيرهم بعد أربعة أشهر أو بعد الأجل المقدر،ربما بدا لهم مخالفا لما عهـــدوه

وألفوه من معاهدة المعاهدين وموادعة الموادعين وترك المهادنين ..ولكن اللّه – سبحانه – كان يريد أمرا أكبر من المألوف وخطوة وراء ما انتهت إليه الأمور! وكـان في المجتمع المسلم كذلك – ولعل بعض هؤلاء من كرام المسلمين وخيارهم كذلك – من يرى أنه لم تعد هناك ضرورة لقتال المشركين عامة،ومتابعتهم حتى يفيئوا إلى الإسلام بعد مـا ظهـر الإسلام في الجزيرة وغلب ولم تبق إلا جيوب متناثرة هنا وهناك لا خوف منـها علـى الإسلام اليوم.ومن المتوقع أن تفيء رويدا رويدا – في ظل السلم – إلى الإسلام ..ولا يخلو هذا الفريق من التحرج من قتال الأقرباء والأصدقاء ومن تربطهم بهم علاقات اجتماعيـة واقتصادية متنوعة،متى كان هناك أمل في دخولهم في الإسلام بغير هذا الإجـراء العنيـف ..ولكن اللّه سبحانه كان يريد أن تقوم آصرة التجمع على العقيدة وحدها،وأن تخلـص الجزيرة للإسلام،وأن تصبح كلها قاعدة أمينة له وهو يعلم أن الروم يبيتون للإسلام علـى مشارف الشام كما سيجيء! وكان في المجتمع المسلم – ولعل بعض هؤلاء كان من كرام المسلمين وخيارهم أيضا! – من يخشى الكساد الذي يتوقعه من تعطل الصلات التجاريـة والاقتصادية في أنحاء الجزيرة بسبب إعلان القتال العام على المشركين كافة فيهـا وتـأثير ذلك في موسم الحج،وبخاصة بعد إعلان ألا يحج بعد العام مشرك،وألا يعمـر المشـركون مساجد اللّه.

وبخاصة حين يضيف إلى هذا الاعتبار عدم ضرورة هذه الخطوة وإمكان الوصول إليهـا بالطرق السلمية البطيئة! ..[٩١]



[٩١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١٥٤]

قال تعالى: { كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)} [التوبة:٨ - ١٠]

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى الأَسْبَابَ التِي تَدْعُو إِلَى أَنْ لاَ يَكُونَ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ،ذَلِكَ لأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا بِاللهِ وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ،وَلأَنَّهُمْ إِذِ انْتَصَرُوا عَلَى الُمسْلِمينَ،وَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ،اجْتَثُوهُمْ وَلَمْ يُبْقُوا عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ،وَلَمْ يَرْقُبُوا فِي الُمسْلِمينَ قَرَابَةً،وَلا عَهْداً،فِي نَقْضِ العَهْدِ وَالمِيثَاقِ،وَهَؤُلاَءِ يَخْدَعُونَ الُمؤْمِنِينَ بِكَلاَمِهِمِ المَعْسُولِ،وَقُلُوبُهُمْ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى كَرَاهَتِهِمْ،وَأَكْثَرُهُمْ خَارِجُونَ عَنِ الحَقِّ،نَاقِضُونَ لِلْعَهْدِ .

اعْتَاضُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللهِ بِمَا التَهَوا بِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيا الخَسِيسَةِ،فَمَنَعُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الإِيمَانِ بِاللهِ،وَعَنِ اتِّبَاعِ الحَقِّ،وَمَنَعُوا النَّاسَ مِنَ الدُّخُولِ فِي الإِسْلاَمِ فَبِئْسَ العَمَلُ عَمَلُهُمْ،وَسَاءَ مَا عَمِلُوا مِنِ اشْتِرَاءِ الكُفْرِ بِالإِيمَانِ،وَالضَّلاَلَةِ بِالهُدَى .

وَيَجْعَلُهُمْ كُفْرُهُمْ لاَ يَرْعَوْنَ فِي مُؤْمِنٍ،يَقْدِرُونَ عَلَى الفَتْكِ بِهِ،قَرَابةً تَقْتَضِي الودَّ،وَلا ذِمَّةً تُوجِبُ الوَفَاءَ بِالعَهْدِ،وَلا رِبَّاً يُحَرِّمُ الخِيَانَةَ وَالغَدْرَ،وَهَؤُلاَءِ هُمُ الُمتَجَاوِزُونَ الحُدُودَ فِي الظُّلْمِ[٩٢].

كيف يكون للمشركين عهد عند اللّه وعند رسوله وهم لا يعاهدونكم إلا في حال عجزهم عن التغلب عليكم.ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل في غير مراعاة لعهد قائم بينهم وبينكم،وفي غير ذمة يرعونها لكم أو في غير تحرج ولا تذمم من فعل يأتونه معكم! فهم لا يرعون عهدا،ولا يقفون كذلك عند حد في التنكيل بكم ولا حتى الحدود المتعارف عليها في البيئة والتي يذمون لو تجاوزوها.فهم لشدة ما يكنونه لكم من البغضاء يتجاوزون كل حد في التنكيل بكم،لو أنهم قدروا عليكم.مهما يكن بينكم

[٩٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٤٤، بترقيم الشاملة آليا)

وبينهم من عهود قائمة.فليس الذي يمنعهم من أي فعل شائن معكم أن تكــون بيــنكم وبينهم عهود إنما يمنعهم أنهم لا يقدرون عليكم ولا يغلبونكم! ..وإذا كانوا اليوم – وأنتم أقوياء – يرضونكم بأفواههم بالقول اللين والتظاهر بالوفاء بالعهد.فإن قلوبهم تنغل عليكم بالحقد وتأبى أن تقيم على العهد فما بهم من وفاء لكم ولا ود! «وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ.اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ.إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» ..

وهذا هو الســبب الأصــيل لهــذا الحقــد الــدفين عليكم،وإضــمار عــدم الوفــاء بعهودكم،والانطلاق في التنكيل بكم – لو قدروا – من كل تحرج ومن كل تذمم ..إنــه الفسوق عن دين اللّه،والخروج عن هذاه.فلقد آثروا على آيات اللّه التي جاءتهم ثمنا قلــيلا من عرض هذه الحياة الدنيا يستمسكون به ويخافون فوته.وقد كانوا يخــافون أن يضــيع عليهم الإسلام شيئامن مصالحهم أو أن يكلفهم شيئا من أموالهم! فصدوا عن سبيل اللّــه بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات اللّه.صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم (فسيجيء أنهم أئمة الكفر) ..أما فعلهم هذا فهو الفعل السيئ الذي يقرر اللّه سوءه الأصيل:
«إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ!» ..

ثم إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم ..إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم ..إنهــم يوجهــون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التي أنتم عليها ..للإيمان ذاته ..كما هو المعهــود في كــل أعداء الصفوة الخالصة من أهل هذا الدين،على مدار التاريخ والقرون ..فكــذلك قــال السحرة لفرعون وهو يتوعدهم بأشد أنواع التعذيب والتنكيل والتقتيل:«وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّــا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا» ..وكذلك قال رسول اللّه – ﷺ– لأهل الكتاب بتوجيــه من ربه:«قل:يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا باللّه؟» وقــال ســبحانه عــن أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين:«وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُــوا بِاللَّــهِ الْعَزِيــزِ الْحَمِيدِ».فالإيمان هو سبب النقمة،ومن ثم هم يضطغنون الحقد لكل مؤمن،ولا يراعــون فيه عهدا ولا يتذممون من منكر:«لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً،وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» ..

فصفة الاعتداء أصيلة فيهم ..تبدأ من نقطة كرههم للإيمان ذاته وصدودهم عنه وتنتـــهي بالوقوف في وجهه وتربصهم بالمؤمنين وعدم مراعاتهم لعهد معهم ولا صلة،إذا هم ظهروا عليهم وأمنوا بأسهم وقوتهم.وعندئذ يفعلون بهم الأفاعيل غير مراعين لعهـــد قـــائم،ولا متحرجين ولا متذممين من منكر يأتونه معهم ..وهم آمنون ..!

ثم يبين اللّه كيف يقابل المؤمنون هذه الحال الواقعة من المشركين:«فَـــإِنْ تـــابُوا وَأَقـــامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ،وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ».

إن المسلمين يواجهون أعداء يتربصون بهم ولا يقعد هؤلاء الأعداء عن الفتك بالمســـلمين بلا شفقة ولا رحمة إلا عجزهم عن ذلك.لا يقعدهم عهد معقود،ولا ذمة مرعية،ولا تحرج من مذمة،ولا إبقاء على صلة ..ووراء هذا التقرير تاريخ طويل،يشهد كله بأن هذا هـــو الخط الأصيل الذي لا ينحرف إلا لطارئ زائل،ثم يعود فيأخذ طريقه المرسوم!

إن علينا أن نتتبع موقف المشركين – على مدى التاريخ – من المؤمنين.ليتكشف لنا المدى الحقيقي لهذه النصوص القرآنية ولنرى الموقف بكامله على مدار التاريخ:

فأما في الجزيرة العربية فلعل ذلك معلوم من أحداث السيرة المشهورة.ولعل في هذا الجـــزء من الظلال وحده ما يكفي لتصوير مواقف المشركين من هذا الدين وأهله منـــذ الأيـــام الأولى للدعوة في مكة حتى هذه الفترة التي تواجهها نصوص هذه السورة.

وحقيقة إن المعركة الطويلة الأمد لم تكن بين الإسلام والشرك بقدر ما كانت بين الإسلام وأهل الكتاب من اليهود والنصارى.ولكن هذا لا ينفي أن موقف المشركين من المسلمين كان دائما هو الذي تصوره آيات هذا المقطع من السورة:« كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً! يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ،وَأَكْثَرُهُمْ فاسِـــقُونَ.اشْـــتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ،إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً،وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» ..

لقد كان هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين.فأما أهل الكتاب فندع الحديث عنهم إلى موعده في المقطع الثاني من السورة وأما المشركون فقد كان هذا دأبهم من المسلمين على مدار التاريخ ..

وإذا نحن اعتبرنا أن الإسلام لم يبدأ برسالة محمد - ﷺ- إنما ختم بهذه الرسالة.وأن موقف المشركين من كل رسول ومن كل رسالة من قبل إنما يمثل موقف الشرك من دين اللّه على الإطلاق فإن أبعاد المعركة تترامى ويتجلى الموقف على حقيقته كما تصوره تلك النصوص القرآنية الخالدة،على مدار التاريخ البشري كله بلا استثناء! ماذا صنع المشركون مع نوح،وهود،وصالح،وإبراهيم،وشعيب،وموسى،وعيسى،عليهم صلوات اللّه وسلامه والمؤمنين بهم في زمانهم؟ ثم ماذا صنع المشركون مع محمد - ﷺ- والمؤمنين به كذلك؟ ..إنهم لم يرقبوا فيهم إلّا ولا ذمة متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم ..

وماذا صنع المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثاني للشرك على أيدي التتار؟ ثم ما يصنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة عشر قرنا بالمسلمين في كل مكان؟ ..إنهم لا يرقبون فيهم إلّا ولا ذمة،كما يقرر النص القرآني الصادق الخالد ..

عند ما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين في بغداد وقعت المأساة الدامية التي سجلتها الروايات التاريخية والتي نكتفي فيها بمقتطفات سريعة من تاريخ «البداية والنهاية» لابن كثير فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦ ه:ثمّ دخلت سنة ستّ وخمسين وستّمائة.فيها أخذت التّتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتّى الخليفة،وانقضت دولة بني العبّاس منها.

استهلّت هذه السّنة وجنود التّتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللّذين على مقدّمة عساكر سلطان التّتار،هولاكو خان،وجاءت إليهم أمدد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه،وكلّ ذلك خوفا على نفسه من التّتار،ومصانعة لهم- قبّحهم اللّه تعالى-،وقد سترت بغداد ونصبت المجانيق والعرّادات وغيرها من آلات الممانعة الّتي لا تردّ من قدر اللّه- سبحانه وتعالى- شيئا،كما ورد في الأثر (لن يغني حذر عن قدر)،وكما قال تعالى:إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ (نوح/ ٤)،وقال تعالى إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ

والٍ (الرعد/ ١١)،وأحاطت التّتار بدار الخلافة يرشقونها بالنّبال من كلّ جانب حتّى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه،وكانت من جملة حظاياه،وكانت مولّدة تسمّى عرفة،جاءها سهم من بعض الشّبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة،فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعا شديدا،وأحضر السّهم الّذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب،إذا أراد اللّه إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم.

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرّجال والنّساء والولدان والمشايخ والكهول والشّبّان،ودخل كثير من النّاس في الآبار وأماكن الحشوش،وقنى الوسخ،وكمنوا كذلك أيّاما لا يظهرون،وكان الجماعة من النّاس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التّتار إمّا بالكسر وإمّا بالنّار،ثمّ يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة،حتّى تجري الميازيب من الدّماء في الأزقّة،فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.وكذلك المساجد والجوامع والرّبط،ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذّمّة من اليهود والنّصارى[٩٣] ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقميّ الرّافضيّ وطائفة من التّجّار أخذوا لهم أمانا بذلوا عليه أموالا جزيلة حتّى سلموا وسلمت أموالهم.وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلّها كأنّها خراب ليس فيها إلّا القليل من النّاس،وهم في خوف وجوع وذلّة وقلّة،وكان الوزير العلقميّ قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط أسهمهم من الدّيوان،فكانت العساكر في آخر أيّام المستنصر قريبا من مائة ألف مقاتل،منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر،فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف،ثمّ كاتب التّتار وأطمعهم في أخذ البلاد،وسهّل عليهم ذلك،وحكى لهم حقيقة الحال،وكشف لهم ضعف الرّجال،وذلك كلّه طمعا منه أن يزيل السّنّة بالكلّيّة،وأن يظهر البدعة الرّافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميّين،وأن يبيد العلماء والمفتين،واللّه غالب على أمره،وقد ردّ كيده في نحره،وأذلّه بعد العزّة القعساء،وجعله

---

٩٣ – ذلك أن اليهود والنصارى (من أهل الذمة!) كانوا ممن كاتب التتار لغزو عاصمة الخلافة والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها وممن دلّوا على عورات المدينة،وشاركوا مشاركة فعلية في هذه الكارثة واستقبلوا التتار الوثنيين بالترحاب،ليقضوا لهم على المسلمين الذين أعطوهم ذمتهم ووفروا لهم الأمن والحماية.

(حوشكاشا) للتّتار بعد ما كان وزيرا للخلفاء،واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرّجـــال والنّساء والأطفال،فالحكم للّه العليّ الكبير،ربّ الأرض والسّماء.

وقد جرى على بني إسرائيل ببيت المقدس قريب ممّا جرى على أهل بغداد كما قصّ اللّـــه تعالى علينا ذلك في كتابه العزيز،حيث يقول:وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً* فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِـــي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا (الإسراء/ ٤– ٥) الآيات.وقد قتـــل من بني إسرائيل خلق من الصّلحاء وأسر جماعة من أولاد الأنبياء،وخرّب بيـــت المقـــدس بعدما كان معمورا بالعبّاد والزّهّاد والأحبار والأنبياء،فصار خاويا على عروشـــه واهـــي البناء.

وقد اختلف النّاس في كمّيّة من قتل ببغداد من المسلمين في هـــذه الوقعـــة،فقيل ثمانمائـــة ألف،وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف،وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس،فإنّا للّه وإنّـــا إليـــه راجعون،ولا حول ولا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم.

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرّم،وما زال السّيف يقتل أهلها أربعين يوما،وكـــان قتل الخليفة المستعصم باللّه أمير المؤمنين يوم الأربعاء،رابع عشر صفر وعفّي قبره،وكـــان عمره يومئذ ستّا وأربعين سنة وأربعة أشهر،ومدّة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشـــهر وأيّام،وقتل معه ولده الأكبر أبو العبّاس أحمد،وله خمس وعشرون ســـنة،ثمّ قتـــل ولـــده الأوسط أبو الفضل عبد الرّحمن وله ثـــلاث وعشـــرون سنة،وأســـر ولـــده الأصـــغر مبارك،وأسرت أخواته الثّلاث:فاطمة وخديجة ومريم،وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل،واللّه أعلم،فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشّيخ محيي الدّين يوسف ابن الشّيخ أبي الفرج ابن الجوزيّ،وكان عدوّ الوزير،وقتل أولاده الثّلاثة:عبد اللّه،وعبد الرّحمن،وعبد الكريم،وأكابر الدّولة واحـــدا بعد واحد،منهم الدّيودار الصّغير مجاهد الدّين أيبك،وشهاب الدّين سليمان شـــاه،وجماعة من أمراء السّنّة وأكابر البلد.وكان الرّجل يستدعى به من دار الخلافة من بـــني العبّـــاس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال،تجاه المنظـــرة فيـــذبح كمـــا تـــذبح

الشّاة،ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.وقتل شيخ الشّيوخ مؤدّب الخليفة صدر الدّين عليّ بن النّيّار،وقتل الخطباء والأئمّة،وحملة القرآن،وتعطّلت المساجد والجمعات والمدارس والرّبط مدّة شهور ببغداد،وأراد الوزير ابن العلقميّ قبّحه اللّه- ولعنه،أن يعطّل المساجد والمدارس والرّبط ببغداد،ويستمرّ بالمشاهد ومحالّ الرّفض،وأن يبني للرّافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعلمهم بها وعليها،فلم يقدره اللّه تعالى على ذلك بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة،وأتبعه بولده فاجتمعا- واللّه أعلم- بالدّرك الأسفل من النّار.

ولّما انقضى الأمر المقدّر وانقضت الأربعون يوما بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلّا الشّاذّ من النّاس،والقتلى كأنّها التّلول،وقد سقط عليهم المطر فتغيّرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد،وتغيّر الهواء فحصل بسببه الوباء الشّديد حتّى تعدّى وسرى في الهواء إلى بلاد الشّام،فمات خلق كثير من تغيّر الجوّ وفساد الرّيح،فاجتمع على النّاس الغلاء والوباء والفناء والطّعن والطّاعون،ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم،وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه،وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى،واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى،الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى."[٩٤] إلخ إلخ.

هذه صورة من الواقع التاريخي،حينما ظهر المشركون على المسلمين فلم يرقبوا فيهم إلّا ولا ذمة.فهل كانت صورة تاريخية من الماضي البعيد الموغل في الظلمات،اختص بها التتار في ذلك الزمان؟

كلا! إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن هذه الصورة! ..

إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد ..إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند – ممن

---

[٩٤] – نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم [١١ /٥٧٢١] والبداية والنهاية لابن كثير – موافقة للمطبوع [١٣ /٢٣٥]

قلت:وما فعله أعداء الإسلام اليوم في العراق وغيرهما من بلدان المسلمين أدهى وأمر أيضا

أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند فآثروا الهجرة على البقاء – قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط! أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق ..طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيدا والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية،فذبحتهم كالخراف على طول الطريق،وتركت جثثهم نهبا للطير والوحش،بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة،لا تقل – إن لم تزد – على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد! ..

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين المسلمين في أنحاء الهند إلى باكستان،حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان واجتمع في هذا القطار خمسون ألف موظف ..ودخل القطار بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى (ممر خيبر) ..وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار! ..لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة،القطار في النفق.ولم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء! ..وصدق قول اللّه سبحانه:«كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمة» ..وما تزال هذه المذابح تتكرر في صور شتى ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك؟ ..لقد أبادوا من المسلمين في خلال ربع قرن ستة وعشرين مليونا ..بمعدل مليون في السنة ..وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق ..ذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لهولها الأبدان.وفي هذا العام وقع في القطاع الصيني من التركستان المسلمة ما يغطي على بشاعات التتار ..لقد جيء بأحد الزعماء المسلمين،فحفرت له حفرة في الطريق العام.وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب،أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية (التي تتسلمها الدولة من الأهالي جميعا لتستخدمها في السماد مقابل ما تصرفه لهم من الطعام!!!) فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته ..وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق في الحفرة على هذا النحو حتى مات! كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها.حتى أبادت منهم مليونا منذ الفترة التي صارت فيها

شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم.وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشي – التي من أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالا ونساء في «مفارم» اللحوم التي تصنع لحوم (البولوبيف) ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء – ماضية إلى الآن!!! وما يجري في يوغسلافيا يجري في جميع الدول الشيوعية والوثنية ..الآن ..في هذا الزمان ..ويصدق قول اللّه سبحانه:«كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً؟».«لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً،وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» ..

إنها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية في الجزيرة العربية.و لم تكن حالة طارئة ولا وقتية في بغداد ..إنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية للّه وحده ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير اللّه.في كل زمان وفي كل مكان.

ومن ثم فإن تلك النصوص – وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة في الجزيرة،وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركي الجزيرة – إلا أنها أبعد مدى في الزمان والمكان.لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائما في كل زمان وفي كل مكان.والأمر في تنفيذها إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ في مثل الحالة التي نفذت فيها في الجزيرة العربية،ولا يتعلق بأصل الحكم ولا بأصل الموقف الذي لا يتبدل على الزمان ..[٩٥]



[٩٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١٧٢]

لقد ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة فلم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش – تحس بالخطر الحقيقي الذي يتهددها من دعوة:«أن لا إله إلا اللّه وأن محمـــدا رســـول اللّه» وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان اللّه ومن تمرد نهائي على كل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى اللّه.

ثم بالخطر الجدي من التجمع الحركي العضوي الجديد الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول اللّه – ﷺ– هذا التجمع الذي يدين منذ اليوم الأول بالطاعة للّه ولرســـول اللّـــه ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة في قريش والأوضاع السائدة في هذه الجاهلية.

لم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش أول الأمر – تحس بهذا الخطر وذاك حتى شـــنتها حربـــا شعواء على الدعوة الجديدة،وعلى التجمع الجديد،وعلى القيادة الجديدة وحتى أرصدت لها كل ما في جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة ..

لقد انتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع بـــه الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه ..وهذا هو الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية اللّه للعالمين في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبيـــة العبـــاد للعباد وكلما تمثلت الدعوة الجديدة في تجمع حركـــي جديـــد،يتبع في تحركـــه قيـــادة جديدة،ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض[٩٦]!

وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها،إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان ..ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه،والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد،والدينونة لقيادته الجديدة،إلا كل من نذر نفسه للّه وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان ..

[٩٦] – يراجع في هذا الجزء التعليق على الآيات الأخيرة في سورة الأنفال ص ١٥٥٥ – ١٥٥٨.دار الشروق

بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عودا في المجتمع العربي فأما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى وكان هذا النوع قليلا،فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام،وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين.

وهكذا اختار اللّه السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة،ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون،إلا أن بيعتهم لرسول اللّه - ﷺ- (بيعة العقبة) قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين ..

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:لَمَّا وَعَدَ النَّبِيُّ ﷺالْأَنْصَارَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ،فَالْتَقَوْا بِالْعَقَبَةِ فَقَالُوا:سَلْ لِرَبِّكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ قَالَ ﷺ:" أَسْأَلُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ " قَالُوا:فَمَاذَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ؟ قَالَ ﷺ:" لَكُمُ الْجَنَّةُ "[٩٧]

وعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺالْعَقَبَةَ ، فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا " فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ وَاشْتَرِطْ لِأَصْحَابِكَ ، فَقَالَ ﷺ:" أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ، وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ " ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً لَمْ يَخْطُبِ الْمُرْدُ وَلَا الشِّيبُ خُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ:فَمَا لَنَا قَالَ:" الْجَنَّةُ " قَالَ:ابْسُطْ يَدَكَ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايِعُكَ .ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:فَقَالَ يَعْنِي أَبَا أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ ، فَإِمَّا

[٩٧] - أخبار مكة للفاكهي [٤ /٢٦](٢٣٢٥) صحيح

أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقُتِلَ خِيَارُكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ ، وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ ، فَقَالُوا يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنْهُ يَدَكَ فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا ، قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرْطِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ .[98]

قال ابن كثير في التفسير:وقال محمد بن كعب القُرَظي وغيره:قال عبد الله بن رواحة،رضي الله عنه،لرسول الله ﷺ-يعني ليلة العقبة -:اشترط لربك ولنفسك ما شئت! فقال:"أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا،وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم".قالوا:فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال:"الجنة".قالوا:رَبِح البيعُ،لا نُقيل ولا نستقيل،فنزلت:{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ } الآية.[99]

ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول اللّه هذه البيعة ولا يرتقبون من ورائها شيئا إلا الجنة ويوثقون هذا البيع فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول اللّه - ﷺ- ! يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين بل كانوا مستيقنين أن قريشا وراءهم،وأن العرب كلها سترميهم وأنهم لن يعيشوا بعدها في سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم في الجزيرة وبين ظهرانيهم في المدينة.

عَنْ جَابِرٍ،قَالَ:مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺبِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ،يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ،وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى،يَقُولُ:مَنْ يُؤْوِينِي ؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي،وَلَهُ الْجَنَّةُ ؟ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ،أَوْ مِنْ مِصْرَ،كَذَا قَالَ،فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ،فَيَقُولُونَ:احْذَرْ غُلاَمَ قُرَيْشٍ،لاَ يَفْتِنُكَ،وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ،وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ،حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ،فَآوَيْنَاهُ،وَصَدَّقْنَاهُ،فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ،وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ،فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلاَمِهِ،حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلاَّ وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،يُظْهِرُونَ الإِسْلاَمَ،ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا،فَقُلْنَا:حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺيُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ ؟ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلاً[100] حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي

[98] – أخبار مكة للفاكهي [٤ /٢٣٢](٢٥٤٠) صحيح لغيره – هذان من عندي

[99] – تفسير ابن كثير – دار طيبة [٤ /٢١٨] وتفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤ /٤٩٩](١٧٢٧٠) صحيح لغيره

[100] – المحقق أنهم اثنان وسبعون:ولكن العرب كثيرا ما تحذف الكسر!

الْمَوْسِمِ،فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ،فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا،فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ،علاَمَ نُبَايِعُكَ،قَالَ:تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ،وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ،وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ،لاَ تَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ،وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي،فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ،وَأَزْوَاجَكُمْ،وَأَبْنَاءَكُمْ،وَلَكُمُ الْجَنَّةُ،قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ،وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ،وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ،فَقَالَ:رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ،فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلاَّ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً،وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ،وَأَنَّ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ،فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ،وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ،وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً،فَبَيِّنُوا ذَلِكَ،فَهُوَ أَعْذَرَ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ،قَالُوا:أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ،فَوَاللَّهِ لاَ نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا،وَلاَ نَسْلُبُهَا أَبَدًا،قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ،فَأَخَذَ عَلَيْنَا،وَشَرَطَ،وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ.رواه الإمام أحمد[101]

فقد كان الأنصار إذن يعلمون – عن يقين واضح – تكاليف هذه البيعة وكانوا يعلمون أهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا في هذه الحياة الدنيا – حتى ولا النصر والغلبة – وأهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة ..ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها ..فلا جرم أن يكونوا – مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد – هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة ..

ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء ..لقد ظهر الإسلام وفشا في المدينة واضطر أفراد كثيرون – ومعظمهم من ذوي المكانة في قومهم – أن يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم ..حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء عبد اللّه بن أبيّ بن سلول:هذا أمر قد توجه! وأظهر الإسلام نفاقا.ولا بد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا في الإسلام تقليدا – ولو لم يكونوا منافقين – ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا في

---

[101] – مسند أحمد (عالم الكتب) [٥ /٨٥](١٤٤٥٦) ١٤٥١٠ والمستدرك للحاكم مشكلا [٤ /١٥](٤٢٥١) صحيح

الإسلام ولا انطبعوا بطابعه ..مما أنشأ تخلخلا في بناء المجتمع المدني ناشئا عن اختلاف مستوياته الإيمانية.

وهنا أخذ المنهج القرآني التربوي الفريد،بقيادة رسول اللّه – ﷺ– يعمل عمله في هذه العناصر الجديدة ويعمل كذلك على إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة في جسم المجتمع الوليد.

وحين نراجع السور المدنية – بترتيب النزول التقريبي – فإننا نطلع على الجهد الكبير الذي بذل في عملية الصهر الجديدة للعناصر المتنوعة في المجتمع المسلم وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع – على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة،ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد – وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر ولا تغفل لحظة ..

ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين – وبخاصة في فترات الشدة – أعراض من الضعف،والنفاق والتردد،والشح بالنفس والمال،والتهيب من مواجهة المخاطر ..وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدي الذي يحسم في العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية ..والنصوص القرآنية في السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الأعراض التي كان المنهج القرآني يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة ..نذكر منها على سبيل المثال:

« كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ،وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ.يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ،وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ،وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ،لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »[١٠٢] ...(الأنفال:٥ – ٨)

[١٠٢] – يراجع تفسير هذه الآيات والملابسات التي أحاطت بنزولها في الجزء التاسع من الظلال ص ١٤٧٩ – ١٤٨٢ من الطبعة الثانية المنقحة.

«هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكتابَ منْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكتاب وَأُخَرُ مُتَشابهاتٌ.فَأَمَّا الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ منْهُ ابْتغاءَ الْفتْنَة وَابْتغاءَ تَأْويله،وَما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إِلَّا اللَّهُ،وَالرَّاسخُونَ في الْعلْمِ يَقُولُونَ:آمَنَّا به،كُلٌّ منْ عنْد رَبِّنا،وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْباب.رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا منْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.رَبَّنا إِنَّكَ جامعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فيه،إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلفُ الْميعادَ» ...(آل عمران:٧ – ٩)

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوانِهِمُ الَّذينَ كَفَرُوا منْ أَهْلِ الْكتاب:لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطيعُ فيكُمْ أَحَداً أَبَداً،وَإِنْ قُوتلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ،وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذبُونَ.لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ،وَلَئِنْ قُوتلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ.لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً في صُدُورِهِمْ منَ اللَّه،ذلكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» ...(الحشر:١١ – ١٣)

«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نعْمَةَ اللَّه عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ ريحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها،وَكانَ اللَّهُ بما تَعْمَلُونَ بَصيراً.إِذْ جاؤُكُمْ منْ فَوْقكُمْ وَمنْ أَسْفَلَ منْكُمْ،وَإِذْ زاغَت الْأَبْصارُ وَبَلَغَت الْقُلُوبُ الْحَناجرَ،وَتَظُنُّونَ باللَّه الظُّنُونَا،هُنالكَ ابْتُليَ الْمُؤْمنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَديداً.وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافقُونَ وَالَّذينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ:ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً.وَإِذْ قالَتْ طائفَةٌ منْهُمْ:يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجعُوا،وَيَسْتَأْذنُ فَريقٌ منْهُمُ النَّبيَّ يَقُولُونَ:إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ – وَما هيَ بعَوْرَة – إِنْ يُريدُونَ إِلَّا فراراً.وَلَوْ دُخلَتْ عَلَيْهِمْ منْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئلُوا الْفتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بها إِلَّا يَسيراً ...إلخ» (الأحزاب:٩ – ١٤)

«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا خُذُوا حذْرَكُمْ،فَانْفرُوا ثُبات أَو انْفرُوا جَميعاً.وَإِنَّ منْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ،فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصيبَةٌ قالَ:قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهيداً.وَلَئنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ منَ اللَّه لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَني كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظيماً» ...(النساء:٧١ – ٧٣) «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ قيلَ لَهُمْ:كُفُّوا أَيْديَكُمْ وَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ،فَلَمَّا كُتبَ عَلَيْهِمُ الْقتالُ إذا فَريقٌ منْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَة اللَّه أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً،وَقالُوا:رَبَّنا لمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقتالَ؟ لَوْلا أَخَّرْتَنا إلى أَجَلٍ قَريب! قُلْ:مَتاعُ الدُّنْيا قَليلٌ،وَالْآخرَةُ خَيْرٌ لمَنِ اتَّقى،وَلا تُظْلَمُونَ فَتيلًا.أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ

فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ،وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا:هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا:هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ.قُلْ:كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ...» ...النساء:٧٧ – ٧٨)

«إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ،وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ.إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ.ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ،وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ،وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ،وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ» ..(محمد:٣٦ – ٣٨).

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ،ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ،وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً،إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ.لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً،أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ،أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ.اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ،أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ،أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ.إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ،كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي،إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ.لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ،أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ،وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ،أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ،أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ...(المجادلة:١٤ – ٢٢).

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ،بَعْضُهُمْ أَوْ الْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ.لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ،يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ،وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ،إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ:إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ،كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا

بِاللَّه وَحْدَهُ.إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ:لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيء،رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»...(الممتحنة:١ – ٤).

وحسبنا هذه النماذج العشرة من شتى السور،للدلالة على ما كان يظهر في المجتمع المسلم من أعراض ..نتيجة طبيعية وحتمية لدخول عناصر جديدة فيه بصفة مستمرة،لا يتم صهرها وتنسيقها مع القاعدة الصلبة الخالصة إلا بعد فترة وجهد وتربية مستمرة ..

إلا أن قوام المجتمع المسلم في المدينة كان يظل سليما في جملته بسبب اعتماده أساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار وما تحدثه من تماسك وصلابة في قوامه في وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحيانا،والتعرض للمخاطر التي تكشف عن هذه العناصر التي لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها.

وشيئا فشيئا كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين ومن المترددين كذلك والمتهيبين وممن لم يتم في نفوسهم الوضوح العقيدي الذي يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين ..حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامي أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذي يهدف إليه المنهج التربوي الرباني الفريد ..

نعم إنه كانت في هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقدية ذاتها فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها ..تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار.وتميز أهل بدر.وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية.ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا.وجاءت النصوص القرآنية،والأحاديث النبوية،والأوضاع العملية في المجتمع المسلم،تؤكد هذه الأقدار التي أنشأتها الحركة بالعقيدة وتنص عليها.

«وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ،خالِدِينَ فِيها أَبَداً،ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» ..(التوبة:١٠٠).

عَنْ عَلِيٍّ – رضى الله عنه – قَالَ بَعَثَنِى رَسُولُ اللَّه – ﷺ- وَأَبَا مَرْثَدٍ وَالزُّبَيْرَ وَكُلُّنَا فَارِسٌ قَالَ « انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ،فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ،مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِى بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ » .فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ- فَقُلْنَا الْكِتَابُ .فَقَالَتْ مَا مَعَنَا كِتَابٌ .فَأَنَخْنَاهَا فَالْتَمَسْنَا فَلَمْ نَرَ كِتَابًا،فَقُلْنَا مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ-،لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكِ .فَلَمَّا رَأَتِ الْجِدَّ أَهْوَتْ إِلَى حُجْزَتِهَا وَهْىَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ فَأَخْرَجَتْهُ،فَانْطَلَقْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّه – ﷺ- فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّه،قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ،فَدَعْنِى فَلأَضْرِبْ عُنُقَهُ .فَقَالَ النَّبِىُّ – ﷺ- « مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ » .قَالَ حَاطِبٌ وَاللَّه مَا بِى أَنْ لاَ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّه وَرَسُولِه – ﷺ- أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِى عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِى وَمَالِى،وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلاَّ لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِه مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِه عَنْ أَهْلِه وَمَالِه .فَقَالَ النَّبِىُّ – ﷺ- « صَدَقَ،وَلاَ تَقُولُوا لَهُ إِلاَّ خَيْرًا » .فَقَالَ عُمَرُ إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ،فَدَعْنِى فَلأَضْرِبَ عُنُقَهُ .فَقَالَ « أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ » .فَقَالَ « لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ،أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » .فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ...أخرجه البخاري[١٠٣].

وكان هذا رد رسول اللّه – ﷺ- على عمر – رضي اللّه عنه – وقد استأذن رسول اللّه ﷺفي أن يضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة حينما أدركته لحظة ضعف فأرسل إلى قريش سرا ينبئهم بتجهز رسول اللّه ﷺلفتح مكة).

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ،فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ،فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً،وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً» (الفتح:١٨ – ١٩).

«لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ،أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى،وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» ...(الحديد:١٠).

[١٠٣] – صحيح البخارى- المكنز [١٣ /٣٤١](٣٩٨٣)

عَنْ أَنَسٍ،قَالَ:كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ كَلاَمٌ،فَقَالَ خَالِدٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ:تَسْتَطِيلُونَ عَلَيْنَا بِأَيَّامٍ سَبَقْتُمُونَا بِهَا،فَبَلَغَنَا أَنَّ ذَلِكَ ذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:دَعُوا لِي أَصْحَابِي،فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ،أَوْ مِثْلَ الْجِبَالِ،ذَهَبًا،مَا بَلَغْتُمْ أَعْمَالَهُمْ."[104].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:وَقَعَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ سِبَابٌ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي،فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ عَمَلَ صَاحِبِهِ،وَلاَ نَصِيفَهُ.[105]

وهو يعني هذه الطبقة ذات القدر الخاص المتميز في المجتمع المسلم في المدينة.

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التي أنشأتها الحركة الإسلامية، لم يكن مانعا أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق في مجتمع المدينة قبيل الفتح وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة في الصف،والكثير من ظواهر الضعف والتردد،والشح بالنفس والمال،وعدم الوضوح العقدي،والنفاق ..من ذلك المجتمع.بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدني بجملته هو القاعدة الإسلامية.

إلا أن فتح مكة في العام الثامن الهجري،وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة،قد عاد فصب في المجتمع المسلم أفواجا جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية وفيهم كارهون للإسلام منافقون وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر،وفيهم المؤلفة قلوبهم،دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية.

لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزا قويا دون انسياح الإسلام في الجزيرة العربية.فقد كانت قريش هي صاحبة الكلمة العليا في الشؤون الدينية في الجزيرة – فوق ما كان لها من نفوذ اقتصادي وسياسي وأدبي كذلك – فكانت وقفتها في وجه الدين الجديد،بهذه الصورة العنيدة،مدعاة لصرف العرب في أنحاء الجزيرة عن الدخول فيه،أو على

---

[104] – مسند أحمد (عالم الكتب) [٤ /٦٧٩](١٣٨١٢) ١٣٨٤٨ وصحيح مسلم- المكتز [١٦ /٣٤٨](٦٦٥٢) – النَّصيف :النصف

[105] – فضائل الصحابة لعبد الله بن أحمد ٢٩٠ [١ /٣٦٥](٥٣٥) صحيح – زيادة مني

الأقل مدعاة للتردد والانتظار حتى تنجلي المعركة بين قريش وهذا النبي من أبنائها!

...فلما دانت قريش بالفتح،ودانت بعدها هوازن وثقيف في الطائف وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية في المدينة قد خضدت شوكتها نهائيا فأجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الشام،وأبيدت بنو قريظة،واستسلمت خيبر الاستسلام الأخير ...كان ذلك إيذانا بدخول الناس في دين اللّه أفواجا،وانسياح الإسلام في أرجاء الجزيرة كلها في خلال عام واحد.

غير أن هذا الاتساع الأفقي في رقعة الإسلام قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التي ظهرت في المجتمع بعد انتصار بدر – ولكن على نطاق أوسع – بعد ما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى،المستمرة التأثير في خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى! ولولا أن المجتمع المدني بجملته كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة،والأساس الركين لهذا المجتمع لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقي السريع في رقعة الإسلام في الجزيرة.ولكن اللّه الذي كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه،كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتكون هي القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبي الذي جاء به انتصار بدر كما أنه – سبحانه – كان قد أعد المجتمع المدني بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذي جاء به فتح مكة ..واللّه أعلم حيث يجعل رسالته ..

وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين الذي جاء عنه في هذه السورة:«التوبة»:«لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ،وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ،ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ.ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها،وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا،وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ» ..

وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة في أول الأمر أن ألفين من «الطلقاء» الذين أسلموا يوم الفتح،قد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينة الذين فتحوا مكة.فكان وجود هذين الألفين – مع عشرة آلاف – سببا في اختلال التوازن في الصف – بالإضافة إلى عامل المفاجأة من هوازن – ذلك أن الجيش لم يكن كله من القاعدة الصلبة الخالصة التي تمت تربيتها وتناسقها في الزمن الطويل ما بين بدر والفتح.

كذلك كان ما ظهر في أثناء غزوة تبوك من الأعراض والظواهر المؤذية ثمرة طبيعية لهذا الاتساع الأفقي السريع ودخول تلك الأفواج الجديدة،بمستوياتها الإيمانية والتنظيمية المخلخلة ..هذه الظواهر والأعراض التي تحدثت عنها سورة التوبة،والتي اقتضت تلك الحملات الطويلة المفصلة المنوعة الأساليب،التي أشرنا إليها في المقتطفات الممثلة لكل مقاطع السورة.

ونستطيع أن نستطرد هنا لنتابع خطوات الواقع التاريخي للمجتمع المسلم بعد عامين اثنين من الفتح عند ما قبض رسول اللّه – ﷺ- فارتدت الجزيرة العربية كلها و لم يثبت إلا مجتمع المدينة – القاعدة الصلبة الخالصة – فهذه الظاهرة يسهل الآن تفسيرها ..إن عامين اثنين بعد الفتح لم يكونا كافيين لاستقرار حقيقة الإسلام في نفوس هذه الأفواج الكثيرة التي دخلت في دين اللّه بعد الفتح،بمستوياتها الإيمانية المخلخلة.فلما قبض رسول اللّه – ﷺ- ارتجت الجزيرة المخلخلة،وثبتت القاعدة الصلبة.واستطاعت هذه القاعدة بصلابتها وخلوصها وتناسقها أن تقف في وجه التيار وأن ترده عن مجراه الجارف وأن تحوله إلى الإسلام مرة أخرى ..

إن رؤية هذه الحقيقة – على هذا النحو – كفيلة بأن ترينا تدبير اللّه الحكيم في المحنة الطويلة التي تعرضت لها الدعوة في مكة – في أول الأمر – وحكمته في تسليط المشركين الطواغيت على الفئة المسلمة يؤذونها،ويفتنونها عن دينها،ويهدرون دماءها،ويفعلون بها الأفاعيل! لقد كان اللّه سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الأولى وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة.

وأنه بدون هذه المحنة الطويلة لا تصلب الأعواد ولا تثبت للضغوط وأن هذه الدرجة من الصلابة والخلوص والتجرد والإصرار والمضي في سبيل اللّه على الأذى والعذاب والقتل والتنكيل والتشريد والتجويع،وقلة العدد،وانعدام النصير الأرضي ...إن هذه الدرجة هي وحدها التي تصلح للقاعدة الأصيلة الثابتة عند نقطة الانطلاق الأولى ..

إن هذه القاعدة الصلبة من المهاجرين الأوائل هي التي انضم إليها السابقون من الأنصار،ليكونوا القاعدة في المدينة – قبل بدر – وليكونوا هم الحراس الأقوياء الأشداء في

فترة التخلخل التي أعقبت النصر في بدر،بالتوسع الأفقي الذي جاء بأعـــداد جديـــدة لم تنضج بعد،و لم تتناسق مع القاعدة في مستواها الإيماني والتنظيمي.

وأخيرا فإن القاعدة الصلبة التي اتسعت أبعادها قبيل الفتح،حتى صارت تتمثل في المجتمـــع المدني بجملته،هي التي حرست الإسلام وصانته من الهزات بعد الفتح ثم من الهزة الكـــبرى بعد وفاة رسول اللّه – ﷺ– وارتداد الجزيرة عن الإسلام.

إن هذه الحقيقة – كما أنها ترينا تدبير اللّه الحكيم في المحنة الطويلة التي تعرضت لها الدعوة في مكة وفي الأهوال والمشاق والأخطار التي تعرض لها المجتمع المســـلم في المدينـــة حـــتى الحديبية – هي كذلك تكشف لنا عن طبيعة المنهج الحركي للدعوة الإسلامية المتجددة في أي زمان وفي أي مكان.

إنه ابتداء يجب توجيه الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة مـــن المـــؤمنين الخلص،الـــذين تصهرهم المحنة فيثبتون عليها والعناية بتربيتهم تربية إيمانية عميقة تزيدهم صـــلابة وقـــوة ووعيا ذلك مع الحذر الشديد من التوسع الأفقي قبل الاطمئنان إلى قيام هـــذه القاعـــدة الصلبة الخالصة الواعية المستنيرة.فالتوسع الأفقي قبل قيام هذه القاعدة خطر ما حق يهدر وجود أية حركة،لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذه الناحية،ولا تراعي طبيعة المنـــهج الحركي الرباني النبوي الذي سارت عليه الجماعة الأولى.

على أن اللّه – سبحانه – هو الذي يتكفل بهـــذا لدعوتـــه.فحيثمـــا أراد لهـــا حركـــة صحيحة،عرّض طلائعها للمحنة الطويلة وأبطأ عليهم النصر وقللهم وبطأ الناس عنهم حتى يعلم منهم أن قد صبروا وثبتوا،وتهيأوا وصلحوا لأن يكونوا هم القاعدة الصلبة الخالصـــة الواعية الأمينة ..ثم نقل خطاهم بعد ذلك بيده – سبحانه – واللّه غالب على أمره،ولكن أكثر الناس لا يعلمون.[١٠٦]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[١٠٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١١٤]

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)} [التوبة]

يُرَغِّبُ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ فِي الجِهَادِ،وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ سَيُعَوِّضُ المُؤْمِنِينَ بِالجَنَّةِ عَنْ بَذْلِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ،لِتَكُونَ كَلِمَةَ اللهِ هِيَ العُلْيَا،ولإحْقَاقِ الحَقِّ،وَإِقَامَةِ العَدْلِ فِي الأَرْضِ،فَهُمْ حِينَ يُجَاهِدُونَ يَقْتُلُونَ أَعْدَاءَهُمْ،وَيُقْتَلُونَ هُمْ،وَهُمْ فِي كلاَ الحَالَيْنِ مُثَابُونَ عَلَى ذَلِكَ.وَقَدْ وَعَدَ اللهُ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ بِهَذَا الجَزَاءِ الحَقِّ،وَجَعَلَهُ حَقّاً عَلَيهِ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ .

ثُمَّ يَدْعُو اللهُ تَعَالَى مَنِ التَزَمَ مِنَ المُؤْمِنِينَ بِعَهْدِهِ للهِ إِلَى الاسْتِبْشَارِ بِذَلِكَ الفَوْزِ العَظِيمِ،وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ،لأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَفَاءً بِالْعَهْدِ،وَلاَ أَكْثَرَ مِنْهُ التزَاماً بِالوَعْدِ الذِي يَقْطَعُهُ عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ،وَلَيْسَ هُنَاكَ رِبْحٌ أَكْبَرُ مِنَ الرِّبحِ الذِي يُحَقِّقُهُ المُؤْمِنُونَ فِي هَذِهِ الصَّفْقَةِ .

وَهُنَا يُعَدِّدُ اللهُ تَعَالَى صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ الذِينَ اشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالجَنَّةِ،وَهُمْ:التَّائِبُونَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّها،التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ،القَائِمُونَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ،وَالمُحَافِظُونَ عَلَيهَا،وَالحَامِدُ نَ للهِ عَلَى نِعَمِهِ وَأَفْضَالِهِ،السَّائِحُونَ فِي الأَرْضِ،لِلاعْتِبَارِ وَ الاسْتِبْصَارِ بِمَا خَلَقَ اللهُ مِنَ العِبَرِ وَ الآيَاتِ،(وَقِيلَ أَيْضاً إِنَّ مَعْنَى السَّائِحِينَ هُنَا الصَّائِمُونَ) وَالمُصَلُّونَ.وَهُمْ مَعْ ذَلِكَ كُلِّهِ يَسْعَوْنَ فِي نَفْعِ خَلْقِ اللهِ،وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى طَاعَتِهِ،بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ،وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ،مَعَ العِلْمِ بِمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ،وَيَجِبُ تَرْكُهُ طَاعَةً للهِ

(أَيْ إِنَّهُمْ يَحْفَظُونَ حُدُودَ اللهِ).وَيُبَشِّرُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّصِفِينَ بِهَـــذِهِ الصِّـــفَاتِ الكَرِيمَـــةِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ...[١٠٧]

هذا النص الذي تلوته من قبل وسمعته ما لا أستطيع عده من المـــرات،في أثنـــاء حفظـــي للقرآن،وفي أثناء تلاوته،وفي أثناء دراسته بعد ذلك في أكثر من ربع قرن من الزمان ..هذا النص – حين واجهته في «الظلال» أحسست أنني أدرك منه ما لم أدركه مـــن قبـــل في المرات التي لا أملك عدها على مدى ذلك الزمان! إنه نص رهيب! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين باللّه وعن حقيقة البيعة التي أعطوهـــا – بإســـلامهم – طـــوال الحياة.فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف (المـــؤمن) وتتمثل فيه حقيقة الإيمان.وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق! حقيقة هذه البيعة – أو هذه المبايعة كما سماها اللّه كرما منه وفضلا وسماحة – أن اللّه – ســـبحانه – قـــد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم فلم يعد لهم منها شيء ..لم يعد لهم أن يســـتبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله.

لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا ..كلا ..إنها صفقة مشتراة،لشاريها أن يتصـــرف بها كما يشاء،وفق ما يفرض ووفق ما يحدد،وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم،لا يتلفت ولا يتخير،ولا يناقش ولا يجادل،ولا يقول إلا الطاعة والعمـــل والاستسلام ..والثمن:هو الجنة ..والطريق:هو الجهاد والقتل والقتال ..والنهاية:هي النصر أو الاستشهاد:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ..

من بايع على هذا.من أمضى عقد الصفقة.من ارتضى الثمن ووفى.فهو المؤمن ..فالمؤمنون هم الذين اشترى اللّه منهم فباعوا ..ومن رحمة اللّه أن جعل للصفقة ثمنا،وإلا فهو واهـــب الأنفس والأموال،وهو مالك الأنفس والأموال.ولكنه كرم هذا الإنسان فجعلـــه مريـــدا وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها – حتى مع اللّه – وكرمه فقيده بعقوده وعهوده وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ونقضه لها هـــو مقيـــاس ارتكاســـه إلى عـــالم

[١٠٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٤٧، بترقيم الشاملة آليا)

البهيمة:..شر البهيمة ..«إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ» ..كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة – بلا شك – ولكنها في عنق كل مؤمن – قادر عليها – لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه.

ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ..

عونك اللهم! فإن العقد رهيب ..وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها،قاعدون،لا يجاهدون لتقرير ألوهية اللّه في الأرض،وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد.ولا يقتلون.ولا يقتلون.ولا يجاهدون جهادا ما دون القتل والقتال! ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين – على عهد رسول اللّه – ﷺ– فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم و لم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم،أو يحسونها مجردة في مشاعرهم.كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها.لتحويلها إلى حركة منظورة،لا إلى صورة متأملة ..هكذا أدركها عبد اللّه بن رواحة – رضي اللّه عنه – في بيعة العقبة الثانية.عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا:قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ:اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت ! قال:اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا،واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم.قالوا:فإذا فعلنا ذلك،فماذا لنا؟ قال:الجنة! قالوا:ربح البيعُ،لا نُقيل ولا نستقيل !فنزلت:(إن الله اشترى من المؤمنين)،الآية[١٠٨] ..

هكذا ..«ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل» ..لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين انتهى أمرها،وأمضي عقدها،و لم يعد إلى مرد من سبيل:«لا نقيل ولا نستقيل» فالصفقة

[١٠٨] – تفسير ابن كثير – دار طيبة [٤ /٢١٨] وتفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤ /٤٩٩](١٧٢٧٠)
ونحن نستبعد أن تكون الآية نزلت يومذاك.السيد رحمه الله

ماضية لا رجعة فيها ولا خيار والجنة:ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من اللّه؟ أليس اللّه هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن.

وعدا قديما في كل كتبه:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» ..

«وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟».أجل! ومن أوفى بعهده من اللّه؟

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن ..كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين اللّه ..إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» ..«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً».

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه.ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق! ..بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق ..إن دين اللّه لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية للّه وحده.ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق ..بل لا بد أن يقطع عليه الطريق ..ولا بد لدين اللّه أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله.ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا! ..وما دام في «الأرض» كفر.وما دام في «الأرض» باطل.وما دامت في «الأرض» عبودية لغير اللّه تذل كرامة «الإنسان» فالجهاد في سبيل اللّه ماض،والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء.وإلا فليس بالإيمان،فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ »[١٠٩].

فيومذاك لم يكن قد فرض قتال.وهذه آية مدنية قطعا.ولكنها تنفق مع مضمون تلك البيعة العام.

«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم للّه،وأخذ الجنة عوضا وثمنا،كما وعد اللّه ..وما الذي فات؟

[١٠٩] - صحيح مسلم- المكنز [١٢ /٤٦٣](٥٠٤٠)

ما الذي فات المؤمن الذي يسلم للّه نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ واللّه ما فاته شيء.فالنفس إلى موت،والمال إلى فوت.سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل اللّه أم في سبيل سواه! والجنة كسب.كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك! ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش للّه.ينتصر – إذا انتصر – لإعلاء كلمته،وتقرير دينه،وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه.ويستشهد – إذا استشهد – في سبيله،ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.

ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة – أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض،والإيمان ينتصر فيه على الألم،والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب.كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة وانتصار الإيمان فيه على الألم،وانتصار العقيدة فيه على الحياة ..فإذا أضيفت إلى ذلك كله ..الجنة ..فهو بيع يدعو إلى الاستبشار وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال:«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى في هذه الآية:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» ..

فوعد اللّه للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور ..وهو لا يدع مجالا للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيل اللّه في طبيعة هذا المنهج الرباني باعتبار ه الوسيلة المكافئة للواقع البشري – لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه – ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي،يحمي نفسه بالقوة المادية ويقاوم دين اللّه وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة المادية كذلك ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية اللّه وحده للعباد،وتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد.كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته للّه وحده دون العباد ..ومن ثم يتحتم على الإسلام في انطلاقه في «الأرض» لتحقيق إعلانه العام بتحرير «الإنسان» أن يصطدم بالقوة المادية التي تحمي التجمعات الجاهلية والتي تحاول بدورها – في حتمية لا

فكاك منها – أن تسحق حركة البعث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري،لاستبقاء العباد في رق العبودية للعباد! فأما وعد اللّه للمجاهدين في التوراة والإنجيل.فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان ..

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما اللّه على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ولم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة ..وهو قليل ..أضيف إليه الكثير! ومع ذلك فما تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد،والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين،لنصر إلههم وديانته وعبادته! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم للّه – سبحانه – وتصورهم للجهاد في سبيله.

فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد ..ولكننا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها – بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم! – وقبل ذلك بشهادة اللّه سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

واللّه سبحانه يقول في كتابه المحفوظ:إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن ..فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعده لقائل مقال!

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.كل مؤمن على الإطلاق.منذ كانت الرسل،ومنذ كان دين اللّه ..ولكن الجهاد في سبيل اللّه ليس مجرد اندفاعة إلى القتال إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال:والمؤمنون الذين عقد اللّه معهم البيعة،والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات

إيمانية أصيلة:« التَّائِبُونَ.الْعابِدُونَ.الْحامِدُونَ.السَّائِحُونَ.الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ.الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ.وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ»

«التَّائِبُونَ» ..مما أسلفوا،العائدون إلى اللّه مستغفرين.والتوبة شعور بالندم على ما مضى،وتوجه إلى اللّه فيما بقي،وكف عن الذنب،وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك.فهي طهارة وزكاة وتوجه وصلاح.

«الْعابِدُونَ» ..المتوجهون إلى اللّه وحده بالعبادة وبالعبودية،إقرارا بالربوبية ..صفة هذه ثابتة في نفوسهم تترجمها الشعائر،كما يترجمها التوجه إلى اللّه وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل اتباع.فهي إقرار بالألوهية والربوبية للّه في صورة عملية واقعية.

«الْحامِدُونَ» ..الذين تنطوي قلوبهم على الاعتراف للمنعم بالنعمة وتلهج ألسنتهم بحمد اللّه في السراء والضراء.في السراء للشكر على ظاهر النعمة،وفي الضراء للشعور بما في الابتلاء من الرحمة.وليس الحمد هو الحمد في السراء وحدها،ولكنه الحمد في الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن اللّه الرحيم العادل ما كان ليبتلي المؤمن إلا لخير يعلمه،مهما خفي على العباد إدراكه.

« السَّائِحُونَ» ..وتختلف الروايات فيهم.فمنها ما يقول:إنهم المهاجرون.ومنها ما يقول:إنهم المجاهدون.ومنها ما يقول:إنهم المتنقلون في طلب العلم.ومنهم من يقول:إنهم الصائمون ..ونحن نميل إلى اعتبار هم المتفكرين في خلق اللّه وسننه،ممن قيل في أمثالهم في موضع آخر:«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ.وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ،الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ،وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ:رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ! ...» ..فهذه الصفة أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد.فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت اللّه على هذا النحو الذي ينتهي بالإنابة إلى اللّه،وإدراك حكمته في خلقه،وإدراك الحق الذي يقوم عليه الخلق.لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمل والاعتبار .ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك ..

«الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ» ..الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم.
« الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ» ..وحين يقوم المجتمع المسلم الذي تحكمه شريعة اللّه،فيدين للّه وحده ولا يدين لسواه،يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل هذا المجتمع ويتناول ما يقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج اللّه وشرعه ..ولكن حين لا يكون في الأرض مجتمع مسلم وذلك حين لا يكون في الأرض مجتمع الحاكمية فيه للّه وحده،وشريعة اللّه وحدها هي الحاكمة فيه،فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولا إلى الأمر بالمعروف الأكبر،وهو تقرير ألوهية اللّه وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم.والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولا إلى النهي عن المنكر الأكبر.وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير اللّه عن طريق حكمهم بغير شريعة اللّه ..والذين آمنوا بمحمد - ﷺ- هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة اللّه،وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة.فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي.ولم ينفقوا قط جهدهم،قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع.فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر،كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم! «وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» ..وهو القيام على حدود اللّه لتنفيذها في النفس وفي الناس.ومقاومة من يضيعها أو يعتدي عليها ..ولكن هذه كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،لا يقام عليها إلا في مجتمع مسلم.ولا مجتمع مسلم إلا المجتمع الذي تحكمه شريعة اللّه وحدها في أمره كله وإلا الذي يفرد اللّه سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية والتشريع ويرفض حكم الطاغوت المتمثل في كل شرع لم يأذن به اللّه ..والجهد كله يجب أن ينفق ابتداء لإقامة هذا المجتمع.ومتى قام كان هناك مكان للحافظين لحدود اللّه فيه ..كما وقع كذلك أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم!

هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد اللّه معها بيعته.وهذه هي صفاتها ومميزاتها:توبة ترد العبد إلى اللّه،وتكفه عن الذنب،وتدفعه إلى العمل الصالح.وعبادة تصله باللّه وتجعل اللّه معبوده وغايته ووجهته.وحمد للّه على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل للّه والثقة المطلقة برحمته وعدله.وسياحة في ملكوت اللّه مع آيات اللّه الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق.وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة.وحفظ لحدود اللّه يرد عنها العادين والمضيعين،ويصونها من التهجم والانتهاك ..

هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها اللّه على الجنة،واشترى منها الأنفس والأموال،لتمضي مع سنة اللّه الجارية منذ كان دين اللّه ورسله ورسالاته.قتال في سبيل اللّه لإعلاء كلمة اللّه وقتل لأعداء اللّه الذين يحادّون اللّه أو استشهاد في المعركة التي لا تفتر بين الحق والباطل،وبين الإسلام والجاهلية،وبين الشريعة والطاغوت،وبين الهدى والضلال.

وليست الحياة لهوا ولعبا.وليست الحياة أكلا كما تأكل الأنعام ومتاعا.وليست الحياة سلامة ذليلة،وراحة بليدة ورضى بالسلم الرخيصة ..إنما الحياة هي هذه:كفاح في سبيل الحق،وجهاد في سبيل الخير،وانتصار لإعلاء كلمة اللّه،أو استشهاد كذلك في سبيل اللّه ..ثم الجنة والرضوان ..هذه هي الحياة التي يدعى إليها المؤمنون باللّه:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ» ...وصدق اللّه.وصدق رسول اللّه ..[١١٠]



[١١٠] -في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٢٧]

الذين يفقهون هذا الدين حق الفقه

إنَّ هذا الدين منهج حركي،لا يفقهه إلا من يتحرك به فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العمليةفي أثناء الحركة به.أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا،لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ولا فقهوا فقههم ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول اللّه - ﷺ- والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه.

ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن،من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة،هم الذين يتفرغون للتفقه في الدين! ولكن هذا وهم،لا يتفق مع طبيعة هذا الدين ..إن الحركة هي قوام هذا الدين ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به،ويجاهدون لتقريره في واقع الناس،وتغليبه على الجاهلية،بالحركة العملية.

والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه مهما تفرغوا لدراسته في الكتب - دراسة باردة! - وأن اللمحات الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس ولا تتجلى للمستغرقين في الكتب العاكفين على الأوراق! إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة.ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة.والذين يعكفون على الكتب والأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاما فقهية «يجددون» بها الفقه الإسلامي أو «يطورونه» - كما يقول المستشرقون من الصليبيين! - وهم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد،وردهم إلى العبودية للّه وحده،بتحكيم شريعة اللّه وحدها وطرد شرائع الطواغيت ..

هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين! إن الفقه الإسلامي وليد الحركة الإسلامية ..فقد وجد الدين أولا ثم وجد الفقه.وليس العكس هو الصحيح ..وجدت الدينونة للّه وحده،ووجد المجتمع الذي قرر أن تكون الدينونة فيه للّه

وحده ..والذي نبذ شرائع الجاهلية وعاداتها وتقاليدها والذي رفض أن تكون شرائع البشر هي التي تحكم أي جانب من جوانب الحياة فيه ..ثم أخذ هذا المجتمع يزاول الحياة فعـلا وفق المبادئ الكلية في الشريعة – إلى جانب الأحكام الفرعية التي وردت في أصل الشريعة – وفي أثناء مزاولته للحياة الفعلية في ظـل الدينونـة للّـه وحده،واسـتيحاء شـريعته وحدها،تحقيقا لهذه الدينونة،جدت له أقضية فرعية بتجدد الحالات الواقعيـة في حياتـه ..وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية،وبدأ نمو الفقه الإسلامي ..الحركة بهذا الـدين هي التي أنشأت ذلك الفقه،والحركة بهذا الدين هي التي حققت نموه.ولم يكن قط فقهـا مستنبطا من الأوراق الباردة،بعيدا عن حرارة الحياة الواقعة! ..من أجل ذلك كان الفقهاء متفقهين في الدين،يجيء فقههم للدين من تحركهم به،ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمـع مسلم حي،يعيش بهذا الدين،ويجاهد في سبيله،ويتعامل بهذا الفقه الناشئ بسـبب حركـة الحياة الواقعة.

فأما اليوم ..«فماذا» ..؟ أين هو المجتمع المسلم الذي قرر أن تكون دينونته للّـه وحـده والذي رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد والذي قرر أن تكون شريعة اللّـه شـريعته والذي رفض بالفعل شرعية أي تشريع لا يجيء من هذا المصدر الشرعي الوحيد؟

لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود! ومن ثم لا يتجه مسلم يعـرف الإسلام ويفقه منهجه وتاريخه،إلى محاولـة تنميـة الفقـه الإسـلامي أو «تجديـده» أو «تطويره!» في ظل مجتمعات لا تعترف ابتداء بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة التي بهـا تعيش.ولكن المسلم الجاد يتجه ابتداء لتحقيق الدينونة للّه وحـده وتقريـر مبـدأ أن لا حاكمية إلا للّه،وأن لا تشريع ولا تقنين إلا مستمدا من شريعته وحدها تحقيقـا لتلـك الدينونة ..إنه هزل فارغ لا يليق بجدية هذا الدين أن يشغل ناس أنفسهم بتنميـة الفقـه الإسلامي أو «تجديده» أو «تطويره» في مجتمع لا يتعامل بهـذا الفقـه ولا يقـيم عليـه حياته.كما أنه جهل فاضح بطبيعة هذا الدين أن يفهم أحد أنه يستطيع التفقـه في هـذا الدين وهو قاعد،يتعامل مع الكتب والأوراق الباردة،ويستنبط الفقه من قوالـب الفقـه الجامدة! ..

إن الفقه لا يستنبط من الشريعة إلا في مجرى الحياة الدافق وإلا مع الحركة بهذا الــدين في عالم الواقع.

إن الدينونة للّه وحده أنشأت المجتمع المسلم والمجتمع المسلم أنشأ «الفقه الإسلامي» ..ولا بد من هذا الترتيب ..لا بد أن يوجد مجتمع مسلم ناشئ من الدينونة للّه وحده،مصــمم على تنفيذ شريعته وحدها.ثم بعد ذلك – لا قبله – ينشأ فقه إسلامي مفصل علــى قــد المجتمع الذي ينشأ،وليس «جاهزا» معدا من قبل! ذلك أن كل حكم فقهي هو – بطبيعته – تطبيق للشريعة الكلية على حالة واقعة،ذات حجم معين،وشــكل معين،وملابســات معينة.وهذه الحالات تنشئها حركة الحياة،داخل الإطار الإسلامي لا بعيــدا عنه،وتحــدد حجمها وشكلها وملابساتها ومن ثم «يفصل» لها حكم مباشر على «قدها» ..فأما تلــك الأحكام «الجاهزة» في بطون الكتب فقد «فصلت» من قبل لحالات معينة في أثناء جريان الحياة الإسلامية على أساس تحكيم شريعة اللّه فعلا.ولم تكن وقتها «جــاهزة» بــاردة! كانت وقتها حية مليئة بالحيوية وعلينا اليوم أن «نفصل» مثلها للحالات الجديدة ..ولكن قبل ذلك يجب أن يوجد المجتمع الذي يقرر ألا يدين لغير اللّه في شرائعه وألا يفصل حكما شرعيا إلا من شريعة اللّه دون سواها.

وفي هذا يكون الجهد الجاد المثمر،اللائق بجدية هذا الدين.وفي هذا يكون الجهــاد الــذي يفتح البصائر ويمكن من التفقه في الدين حقا ..وغير هذا لا يكون إلا هزلا ترفضه طبيعــة هذا الدين وإلا هروبا من واجب الجهاد الحقيقي تحت التســتر بســتار «تجديــد الفقــه الإسلامي» أو «تطويره»! ..هروب خير منه الاعتراف بالضعف والتقصير وطلب المغفرة من اللّه على التخلف والقعود مع المتخلفين القاعدين![١١١]



[١١١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٥٤]

قال تعالى:{ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس:٥٨]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يُبَلِّغَ المُؤْمِنِينَ،بِأَنَّهُ يَحُقُّ لَهُمْ أَنْ يَفْرَحُوا بِفَضْلِ اللهِ عَلَيْهِمْ،وَبِنِعْمَةِ الإِيمَانِ،وَبِالرَّحْمَةِ الخَاصَّةِ بِهِمْ،وَبِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الهُدَى وَدِينِ الحَقِّ،فَذَلِكَ أَوْلَى بِهِمْ أَنْ يَفْرَحُوا بِهِ،وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُهُ النَّاسُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيا الزَّائِلَةِ الفَانِيَةِ .[112]

فبهذا الفضل الذي آتاه اللّه عباده،وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان ..فبذلك وحده فليفرحوا.

فهذا هو الذي يستحق الفرح.لا المال ولا أعراض هذه الحياة.إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة،فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبدا خاضعا لها.والإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها.إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الإرادة طلقاء اليد،مطمحهم أعلى من هذه الأعراض،وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض.الإيمان عندهم هو النعمة،وتأدية مقتضيات الإيمان هي الهدف.والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم.

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:سَمِعْتُ أَيْفَعَ بْنَ عَبْدٍ يَقُولُ:لَمَّا قَدِمَ خَرَاجُ الْعِرَاقِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ خَرَجَ عُمَرُ وَمَوْلًى لَهُ،فَجَعَلَ عُمَرُ يَعُدُّ الْإِبِلَ،فَإِذَا هِيَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ،فَجَعَلَ عُمَرُ يَقُولُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ،وَجَعَلَ مَوْلَاهُ يَقُولُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ،{فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا} تَقُولُ بِالْهُدَى وَالسُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ،فَقَالَ عُمَرُ:كَذَبْتَ لَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى {فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} وَهَذَا مِمَّا يَجْمَعُونَ.[113]

[112] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٤٢٣، بترقيم الشاملة آليا)

[113] - مسند الشاميين ٣٦٠ [٢ /١٢٥](١٠٣٧) حسن

هكذا كان الرعيل الأولون ينظرون إلى قيم الحياة.كانوا يعدون الفضل الأول والرحمة الأولى هي ما جاءهم من اللّه من موعظة وهدى.فأما المال،وأما الثراء،وأما النصر ذاته فهو تابع.لذلك كان النصر يأتيهم،وكان المال ينثال عليهم،وكان الثراء يطلبهم ..إن طريق هذه الأمة واضح.إنه في هذا الذي يسنه لها قرآنها،وفي سيرة الصدر الأول الذين فهموه من رجالها ..هذا هو الطريق.

إن الأرزاق المادية،والقيم المادية،ليست هي التي تحدد مكان الناس في هذه الأرض ..في الحياة الدنيا فضلا عن مكانهم في الحياة الأخرى ..إن الأرزاق المادية،والتيسيرات المادية،والقيم المادية،يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية – لا في الآخرة المؤجلة ولكن في هذه الحياة الواقعة – كما نشهد اليوم في حضارة المادة الكالحة! إنه لا بد من قيم أخرى تحكم الحياة الإنسانية وهذه القيم الأخرى هي التي يمكن أن تعطي للأرزاق المادية والتيسيرات المادية قيمتها في حياة الناس وهي التي يمكن أن تجعل منها مادة سعادة وراحة لبني الإنسان.

إن المنهج الذي يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذي يحدد قيمة الأرزاق المادية في حياتهم.هو الذي يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء.كما يجعلها سببا للرقي الإنساني أو مزلقا للارتكاس!

ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين في حياة أهله:«يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ،وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ،وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.قُلْ:بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» ..

ومن هنا كان الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة يدركون هذه القيمة العليا،فيقول عمر – رضي اللّه عنه – عن المال والأنعام:«ليس هذا هو الذي يقول اللّه تعالى:«قُلْ:بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» ..

لقد كان عمر – رضي اللّه عنه – يفقه دينه.كان يعرف أن فضل اللّه ورحمته يتمثلان بالدرجة الأولى في هذا الذي أنزله اللّه لهم:موعظة من ربهم،وشفاء لما في الصدور،وهدى ورحمة للمؤمنين.لا فيما يجمعون من المال والإبل والأرزاق!

لقد كانوا يدركون قيمة النقلة البعيدة التي نقلها لهم هذا الدين،من وهدة الجاهلية التي كانوا فيها ..وإنها لنقلة بعيدة بالقياس إلى الجاهلية في كل زمان ومكان [١١٤] ..

.بما فيها جاهلية القرن العشرين[١١٥].

إن النقلة الأساسية التي تتمثل في هذا الدين هي إعتاق رقاب العباد من العبودية للعباد وتحريرهم من هذه العبودية،وتعبيدهم للّه وحده،وإقامة حياتهم كلها على أساس هذا الانطلاق الذي يرفع تصوراتهم،ويرفع قيمهم،ويرفع أخلاقهم.ويرفع حياتهم كلها من العبودية إلى الحرية ..

ثم تجيء الأرزاق المادية والتيسيرات المادية،والتمكين المادي،تبعا لهذا التحرر وهذا الانطلاق.كما حدث في تاريخ العصبة المسلمة،وهي تكتسح الجاهليات حولها،وتهيمن على مقاليد السلطان في الأرض،وتقود البشرية إلى اللّه،لتستمتع معها بفضل اللّه ..

والذين يركزون على القيم المادية،وعلى الإنتاج المادي،ويغفلون تلك القيمة الكبرى الأساسية،هم أعداء البشرية الذين لا يريدون لها أن ترتفع على مستوى الحيوان وعلى مطالب الحيوان.

وهم لا يطلقونها دعوة بريئة ولكنهم يهدفون من ورائها إلى القضاء على القيم الإيمانية،وعلى العقيدة التي تعلق قلوب الناس بما هو أرفع من مطالب الحيوان - دون أن تغفل ضروراتهم الأساسية - وتجعل لهم مطالب أساسية أخرى إلى جوار الطعام والمسكن والجنس التي يعيش في حدودها الحيوان! وهذا الصياح المستمر بتضخيم القيم المادية،والإنتاج المادي،بحيث يطغى الانشغال به على حياة الناس وتفكيرهم وتصوراتهم كلها ..وبحيث يتحول الناس إلى آلات تلهث وراء هذه القيمة،وتعدها قيمة الحياة الكبرى وتنسى في عاصفة الصياح المستمر ..الإنتاج ..الإنتاج ..كل القيم الروحية والأخلاقية وتدوس هذه القيم كلها في سبيل الإنتاج المادي ..هذا الصياح ليس بريئا إنما هو خطة مدبرة لإقامة أصنام تعبد بدل أصنام الجاهلية الأولى وتكون لها السيادة العليا على القيم

---

[١١٤] - يراجع فصل «نقلة بعيدة» في كتاب. «معالم في الطريق». «دار الشروق».

[١١٥] - يراجع كتاب:«الإسلام والجاهلية» للسيد أبي الأعلى المودودي. وكتاب:«جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب. «دار الشروق».

جميعا! وعند ما يصبح الإنتاج المادي صنما يكدح الناس حوله ويطوفون بـــه في قداســـة الأصـــنام فـــإن كـــل القـــيم والاعتبـــار ات الأخـــرى تـــداس في ســـبيله وتنتهك..الأخلاق.الأسرة.الأعراض.الحريات.الضمانات .

كلها ..كلها إذا تعارضت مع توفير الإنتاج يجب أن تـــداس! فمـــاذا تكـــون الأربـــاب والأصنام إن لم تكن هي هذه؟ إنه ليس من الحتم أن يكون الصنم حجرا أو خشبا.فقـــد يكون قيمة واعتبار ا ولا فتة ولقبا! إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل اللّـــه ورحمتـــه المتمثلين في هداه الذي يشفي الصدور،ويحرر الرقاب،ويعلي مـــن القـــيم الإنســـانية في الإنسان.وفي ظل هذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق اللّه الذي أعطاه للناس في الأرض وبالتصنيع الذي يوفر الإنتاج المادي وبالتيسيرات المادية التي تقلل من شدة الكدح وبسائر هذه القيم التي تدق الجاهلية حولها الطبول في الأرض! وبدون وجود تلك القيمـــة العليـــا وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها الناس لأنها يومئذ تستخدم في إعلاء القيم الحيوانية والآلية،على حساب القيم الإنسانية العلوية.

وصدق اللّه العظيم:« يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِـــنْ رَبِّكُمْ،وَشِـــفاءٌ لِمـــا فِـــي الصُّدُورِ،وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ قُلْ:بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّـــا يَجْمَعُونَ» ..[116]



[116] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٤٣٠]

قال تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) } [يونس:٧٥ - ٧٨]

ثُمَّ اللهُ بَعَثَ الرُّسُلَ،الذينَ أَتَوا بَعْدَ نُوحٍ،مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْرَافِ قَوْمِهِ (مَلَئِهِ - وَقَدْ خَصَّ اللهُ تَعَالَى الأَشْرَافَ بِالذِّكْرِ لأنَّ الدَهْمَاءَ كَانُوا تَبَعاً لَهُمْ).وَكَانُوا قَوْماً رَاسِخِينَ فِي الإِجْرَامِ وَالظُّلْمِ وَالفَسَادِ،وَقَدْ أَيَّدَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى وَهَارُونَ بِآيَاتٍ وَحُجَجٍ وَبَرَاهِينَ،عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ،وَعَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِمَا،فَاسْتَكْبَرُ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ عَنِ اتِّبَاعِ الحَقِّ،وَالانْقِيَادِ لَهُ،وَقَدْ ارْتَكَبُوا بِرَفْضِهِمِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ اللهِ إِثْماً عَظِيماً .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى وَهَارُونُ بِالحَقِّ الوَاضِحِ،وَالدَّلِيلِ القَاطِعِ،عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِمَا،قَالُوا:إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ وَاضِحٌ لِمَنْ رَآهُ وَعَايَنَهُ،وَهُمْ يَعْلَمُونَ فِي قَرَارَةِ نُفُوسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ،وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا شَيْئاً آخَرَ يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ المُعْجِزَاتِ التي أَرْسَلَ اللهُ بِهَا مُوسَى إِلَيْهِمْ .

وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى مُوَبِّخاً،وَمُسْتَنْكِراً قَوْلَهُمْ اتِّهَامَهُمْ إِيَّاهُ بِالسِّحْرِ:أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ الوَاضِحِ الظَّاهِرِ،لَمَّا جَاءَكُمْ،إِنَّهُ سِحْرٌ،فَهَلْ هَذَا سِحْرٌ،وَإِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ فِي قَرَارَةِ نُفُوسِكُمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِسِحْرٍ،وَلاَ يَنْجَحُ السَّاحِرُونَ وَلاَ يُفْلِحُونَ،لأَنَّ السِّحْرَ بَاطِلٌ .

وَقَالَ لِمُوسَى:أَجِئْتَنا لِتَصْرِفَنَا عَنِ الدِّينِ الذي وَجَدْنَا آبَاءَنَا يَتَّبِعُونَهُ،لِتَكُونَ،لَكَ وَلأَخِيكَ هَارُونَ،العَظَمَةُ وَالرِّئَاسَةُ وَالسُّلْطَانُ،وَمَا يَتْبَعُهُمَا مِنْ كِبْرِيَاءِ المُلْكِ،وَالعَظَمَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ التَّابِعَةِ لَهَا،فِي أَرْضِ مِصْرَ كُلِّها،فَنَحْنُ لَنْ نُؤْمِنَ بِمَا جِئْتَنا بِهِ .[117]

بهذا التوكيد المتبجح الذي لا يستند مع هذا إلى دليل ..«إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ» ..كأنها جملة واحدة يتعارف عليها المكذبون في جميع العصور! فهكذا قال مشركو قريش،كما

[117] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٤٤٠، بترقيم الشاملة آليا)

حكي عنهم في مطلع السورة،على تباعد الزمان والمكان،وعلى بعد ما بين معجزات موسى ومعجزة القرآن! «قالَ مُوسى:أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ.أَسِحْرٌ هذا؟ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ» ..وقد حذف من استنكار موسى الأول ما دل عليه الثاني.فكأنه قال لهم:أتقولون للحق لما جاءكم:هذا سحر؟ أسحر هذا؟ وفي السؤال الأول استنكار لوصف الحق بالسحر،وفي السؤال الثاني تعجيب من أن يقول أحد عن هذا إنه سحر.فالسحر لا يستهدف هداية الناس،ولا يتضمن عقيدة،وليس له فكرة معينة عن الألوهية وعلاقة الخلق بالخالق ولا يتضمن منهاجا تنظيميا للحياة.فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس.

وما كان الساحرون ليؤدوا عملا يستهدف مثل هذه الأغراض،ويحقق مثل هذا الاتجاه وما كانوا ليفلحوا وكل عملهم تخييل وتزييف.وهنا يكشف الملأ عن حقيقة الدوافع التي تصدهم عن التسليم بآيات اللّه:«قالُوا:أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا،وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ؟ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ» ..

وإذن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة،التي يقوم عليها نظامهم السياسي والاقتصادي.وهو الخوف على السلطان في الأرض،هذا السلطان الذي يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة.

إنها العلة القديمة الجديدة،التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات،وانتحال شتى المعاذير،ورمي الدعاة بأشنع التهم،والفجور في مقاومة الدعوات والدعاة ..إنها هي «الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ» وما تقوم عليه من معتقدات باطلة يحرص المتجبرون على بقائها متحجرة في قلوب الجماهير،بكل ما فيها من زيف،وبكل ما فيها من فساد،وبكل ما فيها من أوهام وخرافات.لأن تفتح القلوب للعقيدة الصحيحة،واستنارة العقول بالنور الجديد،خطر على القيم الموروثة،وخطر على مكانة الطغاة ورهبتهم في قلوب الجماهير،وخطر على القواعد التي تقوم عليها هذه الرهبة وتستند.إنها الخوف على السلطان القائم على الأوهام والأصنام! وعلى تعبيد الناس لأرباب من دون اللّه ..ودعوة الإسلام – على أيدي الرسل جميعا – إنما تستهدف تقرير ربوبية اللّه وحده للعالمين وتنحية الأرباب الزائفة التي تغتصب حقوق الألوهية وخصائصها،وتزاولها في حياة

الناس.وما كانت هذه الأرباب المستخفة للجماهير لتدع كلمة الحق والهدى تصل إلى هذه الجماهير.ما كانت لتدع الإعلان العام الذي يحمله الإسلام بربوبية اللّه وحده للعالمين وتحرير رقاب البشر من العبودية للعباد ..ما كانت لتدع هذا الإعلان العام يصل إلى الجماهير وهي تعلم أنه إعلان بالثورة على ربوبيتهم،والانقلاب على سلطانهم،والانقضاض على ملكهم،والانطلاق إلى فضاء الحرية الكريمة اللائقة بالإنسان!

إنها هي هي العلة القديمة الجديدة كلما قام من يدعو إلى اللّه رب العالمين! وما كان رجال من أذكياء قريش مثلا ليخطئوا إدراك ما في رسالة محمد - ﷺ- من صدق وسمو،وما في عقيدة الشرك من تهافت وفساد.ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة،القائمة على ما في تلك العقيدة من خرافات وتقاليد.كما خشي الملأ من قوم فرعون على سلطانهم في الأرض،فقالوا متبجحين:« وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ»! [١١٨]



[١١٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٤٤٦]

إن الدينونة للّه تحرر البشر من الدينونة لغيره وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّـــه وحده.وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية،هذه الحرية وتلـــك اللتـــان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر – غير النظام الإسلامي – يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية،في صورة من صورها الكثيرة ...سواء عبوديـــة الاعتقـــاد،أو عبوديـــة الشعائر،أو عبودية الشرائع ..فكلها عبودية وبعضها مثل بعض تخضع الرقاب لغـــير اللّـــه بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير اللّه.

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين! لا بد للناس من دينونة.والذين لا يـــدينون للّـــه وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير اللّه في كل جانب من جوانب الحياة! إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط.ومن ثم يفقـــدون خاصـــتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة:«وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُـــونَ وَيَـــأْكُلُونَ كَمَـــا تَأْكُـــلُ الْأَنْعامُ،وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ» ...(محمد:١٢) ولا يخســـر الإنســـان شـــيئا كـــأن يخســـر آدميته،ويندرج في عالم البهيمة،وهذا هو الذي يقع حتما بمجرد التملص من الدينونة للّـــه وحده،والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة.

ثم هم يقعون فرائس لألوان من العبودية للعبيد ..يقعون في شر ألوان العبوديـــة للحكـــام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم،لا ضابط لها ولا هدف إلا حمايـــة مصالح المشرعين أنفسهم – سواء تمثل هؤلاء المشـــرعون في فـــرد حـــاكم،أو في طبقـــة حاكمة،أو في جنس حاكم – فالنظرة على المستوي الإنساني الشامل تكشف عن هـــذه الظاهرة في كل حكم بشري لا يستمد من اللّه وحده،ولا يتقيد بشريعة اللّه لا يتعداها ..

ولكن العبودية للعبيد لا تقف عند حدود العبودية للحكام والرؤساء والمشرعين ..فهـــذه هي الصورة الصارخة،ولكنها ليست هي كل شيء! ..إن العبودية للعباد تتمثل في صـــور أخرى خفية ولكنها قد تكون أقوى وأعمق وأقسى من هذه الصورة! ونضرب مثالا لهذا تلك العبودية لصانعي المودات والأزياء مثلا! أي سلطان لهؤلاء على قطيع كبير جدا مـــن

البشر؟ ..كل الذين يسمونهم متحضرين ..! إن الزي المفروض من آلهة الأزياء – سواء في الملابس أو العربات أو المباني أو المناظر أو الحفلات ...إلخ ..ليمثل عبودية صارمة لا سبيل لجاهلي ولا لجاهلية أن يفلت منها أو يفكر في الخروج عنها! ولو دان الناس – في هذه الجاهلية «الحضارية!» للّه بعض ما يدينون لصانعي الأزياء لكانوا عبادا متبتلين! ..فماذا تكون العبودية إن لم تكن هي هذه؟ وماذا تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هي حاكمية وربوبية صانعي الأزياء أيضا؟! وإن الإنسان ليبصر أحيانا بالمرأة المسكينة،وهي تلبس ما يكشف عن سوآتها،وهو في الوقت ذاته لا يناسب شكلها ولا تكوينها،وتضع من الأصباغ ما يتركها شائهة أو مثارا للسخرية! ولكن الألوهية القاهرة لأرباب الأزياء والمودات تقهرها وتذلها لهذه المهانة التي لا تملك لها ردا،ولا تقوى على رفض الدينونة لها،لأن المجتمع كله من حولها يدين لها.فكيف تكون الدينونة إن لم تكن هي هذه؟ وكيف تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هي تلك؟! وليس هذا إلا مثلا واحدا للعبودية المذلة حين لا يدين الناس للّه وحده وحين يدينون لغيره من العبيد.

وليست حاكمية الرؤساء والحكام وحدها هي الصورة الكريهة المذلة لحاكمية البشر للبشر،ولعبودية البشر للبشر! وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم،التي تصبح كلها ولا عاصم لها عند ما يدين العباد للعباد،في صورة من صور الدينونة ..سواء في صورة حاكمية التشريع،أو في صورة حاكمية الأعراف والتقاليد،أو في صورة حاكمية الاعتقاد والتصور ..

إن الدينونة لغير اللّه في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صورا منها وتمثل أوهام العوام المختلفة صورا منها وتقدم فيها النذور والأضاحي من الأموال – وأحيانا من الأولاد! – تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة،ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب! ومن السحرة المتصلين بالجن والعفاريت! ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار! ومن ..ومن ..من الأوهام التي ما يزال الناس منها في رعب وفي خوف وفي تقرب وفي رجاء،حتى تتقطع

أعناقهم وتتوزع جهودهم،وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء! وقد مثلنا لتكاليف الدينونة لغير اللّه في الأعراف والتقاليد بأرباب الأزياء والمودات! فينبغي أن نعلم كم من الأموال والجهود تضيع – إلى جانب الأعراض والأخلاق – في سبيل هذه الأرباب! إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق على الدهون والعطور والأصباغ وعلى تصفيف الشعر وكيه وعلى الأقمشة التي تصنع منها الأزياء المتقلبة عاما بعد عام،وما يتبعها من الأحذية المناسبة والحلي المتناسقة مع الزي والشعر والحذاء! ...إلى آخر ما تقضي به تلك الأرباب النكدة ..إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق نصف دخله ونصف جهده لملاحقة أهواء تلك الأرباب المتقلبة التي لا تثبت على حال.ومن ورائها اليهود أصحاب رؤوس الأموال الموظفة في الصناعات الخاصة بدنيا تلك الأرباب! ولا يملك الرجل ولا المرأة وهما في هذا الكد الناصب أن يتوقفا لحظة عن تلبية ما تقتضيه تلك الدينونة النكدة من تضحيات في الجهد والمال والعرض والخلق على السواء! وأخيرا تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية ..

وما من أضحية يقدمها عابد اللّه للّه،إلا ويقدم الذين يدينون لغير اللّه أضعافها للأرباب الحاكمة! من الأموال والأنفس والأعراض ..

وتقام أصنام من «الوطن» ومن «القوم» ومن «الجنس» ومن «الطبقة» ومن «الإنتاج» ...ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب ..

وتدق عليها الطبول وتنصب لها الرايات ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد.وإلا فالتردد هو الخيانة،وهو العار ..وحتى حين يتعارض العرض.مع متطلبات هذه الأصنام،فإن العرض هو الذي يضحى ويكون هذا هو الشرف الذي يراق على جوانبه الدم! كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام،ومن ورائها أولئك الأرباب من الحكام! إن كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل اللّه ليعبد اللّه وحده في الأرض وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام،ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده اللّه للإنسان ..إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل اللّه ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغير اللّه! والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة

الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل اللّه،عليهم أن يتأملوا مـــاذا تكلفهـــم الدينونة لغير اللّه في الأنفس والأموال والأولاد،وفوقها الأخلاق والأعراض ..إن تكاليف الجهاد في سبيل اللّه في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغـــير اللّه وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار! وأخيرا فإن توحيد العبـــادة والدينونـــة للّـــه وحده،ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة.كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض،وترقيتها،وترقية الحياة فيها.

وهناك ظاهرة واضحة متكررة أشرنا إليها فيما سبق في هذا الجزء ..وهي أنه كلما قـــام عبد من عبيد اللّه،ليقيم من نفسه طاغوتا يعبّد الناس لشخصه من دون اللّه ..احتاج هـــذا الطاغوت كي يعبد (أي يطاع ويتبع) إلى أن يسخر كل القوى والطاقـــات أولا لحمايـــة شخصه.وثانيا لتأليه ذاته.واحتاج إلى حواش وذيول وأجهزة وأبواق تسبح بحمـــده،وترتل ذكره،وتنفخ في صورته «العبدية» الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان «الألوهية» العظيمة! وألا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة! وإطلاق الترانيم والتراتيـــل حولها.وحشد الجموع – بشتى الوسائل – للتسبيح باسمها،وإقامة طقوس العبادة لها ...!

وهو جهد ناصب لا يفرغ أبدا.لأن الصورة العبدية الهزيلة ما تني تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل.وما تني تحتـــاج كرة أخرى إلى ذلك الجهد الناصب من جديد! وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقـــات وأموال – وأرواح أحيانا وأعراض! – لو أنفـــق بعضـــها في عمـــارة الأرض،والإنتـــاج المثمر،لترقية الحياة البشرية وإغنائها،لعاد على البشرية بالخير الوفير ..ولكن هذه الطاقـــات والأموال – والأرواح أحيانا والأعراض – لا تنفق في هذا السبيل الخير المثمر ما دام الناس لا يدينون للّه وحده وإنما يدينون للطواغيت من دونه.

ومن هذه اللمحة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتـــاج من جراء تنكبها عن الدينونة للّه وحده وعبادة غيره من دونه ..وذلك فوق خســـارتها في

الأرواح والأعراض،والقيم والأخلاق.وفوق الذل والقهر والدنس والعار! وليس هـــذا في نظام أرضي دون نظام،وإن اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات.

« ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة للّه وحده،فأتاحوا لنفر منهم أن يحكمـــوهم بغير شريعته،قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره.العبودية التي تأكـــل إنســـانيتهم وكرامتهم وحريتهم،مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم،والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة.

«لقد هربت أوربا من اللّه – في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باســـم الـــدين الزائف [119]– وثارت على اللّه – سبحانه – في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة! ثم ظن الناس أنهـــم يجـــدون إنســـانيتهم وحريتهم وكرامتهم – ومصالحهم كذلك – في ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية،والأوضاع النيابية البرلمانية،والحريات الصحفية،والضمانات القضائية والتشريعية،وحكم الأغلبيـــة المنتخبـــة ...إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة ..ثم ماذا كانت العاقبـــة؟ كانـــت العاقبة هي طغيان «الرأسمالية» ذلك الطغيان الذي أحال كل تلكالضمانات،وكل تلـــك التشكيلات،إلى مجرد لافتات،أو إلى مجرد خيالات! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبوديـــة ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال،فتملك معه الأغلبية البرلمانية! والدساتير الوضعية! والحريات الصحفية! وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضـــمان إنســـانيتهم وكرامتهم وحريتهم،في معزل عن اللّه سبحانه!!! «ثم هرب فريق من الناس هنـــاك مـــن الأنظمة الفردية التي يطغى فيها «رأس المال» و«الطبقة» إلى الأنظمة الجماعيـــة! فمـــاذا فعلوا؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة «الرأسماليين» الدينونـــة لطبقـــة «الصـــعاليك»! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين! «وفي كل حالة،وفي كل وضـــع،وفي

---

[119] – يراجع فصل:«الفصام النكد» في كتاب:«المستقبل لهذا الدين». نشر «دار الشروق».

كل نظام،دان البشر فيه للبشر،دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة.دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حال.

«إنه لا بد من عبودية! فإن لا تكن للّه وحده تكن لغير اللّه ..والعبودية للّه وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء ..والعبودية لغير اللّه تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم.ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية.

«من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات اللّه – سبحانه – وفي كتبه ..وهذه السورة نموذج من تلك العناية ..فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصنام والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة.ولكنها تتعلق بالإنسان كله،في كل زمان وفي كل مكان وتتعلق بالجاهليات كلها ..جاهليات ما قبل التاريخ،وجاهليات التاريخ.وجاهلية القرن العشرين.وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد»[١٢٠].

والخلاصة التي ينتهي إليها القول في هذه القضية:أنه يتجلى بوضوح من التقريرات القرآنية بجملتها – وهذه السورة نموذج منها – أن قضية الدينونة والاتباع والحاكمية – التي يعبر عنها في هذه السورة بالعبادة – هي قضية عقيدة وإيمان وإسلام وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام! إنها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم.وقضية إيمان يوجد أو لا يوجد.وقضية إسلام يتحقق أو لا يتحقق ..

ثم هي بعد – بعد ذلك لا قبله – قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام وفي أوضاع وتجمعات تتحقق فيها الشريعة والنظام.وتنفذ فيها الأحكام.

وكذلك فإن قضية «العبادة» ليست قضية شعائر وإنما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة ..وأنها من أجل أنها كذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني المتمثل في هذا الدين ..واستحقت كل هذه الرسل والرسالات.واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات.

---

١٢٠ – مقتطفات من الجزء الحادي عشر ص ١٧٥٤ – ١٧٥٥ في التعليق على سورة يونس. وهي بذاتها تصلح هنا للتعقيب على سورة هود!

والآن نجيء إلى تتابع هذا القصص في السورة ودلالته على الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في تاريخ البشرية:

لقد بينا من قبل في التعقيب على قصة نوح [١٢١] أن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتـــها البشرية على يدي آدم عليه السلام أبي البشر الأول،ثم على يدي نوح – عليه الســـلام – أبي البشر الثاني ..ثم بعد ذلك على يدي كل رسول ..وأن الإسلام يعني توحيد الألوهيـــة من ناحية الاعتقاد والتصور والتوجه بالعبادة والشعائر،وتوحيد الربوبية من ناحية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع:أي توحيد القوامة والحاكمية والتوجيه والتشريع.

ثم بينا كذلك أن الجاهلية – سواء كانت جاهلية الاعتقاد والتصور والعبادة والشعائر! أو جاهلية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع – أو هما معا – كانت تطرؤ على البشـــرية بعد معرفة الإسلام على أيدي الرسل – عليهم صلوات اللّه وسلامه – وكانـــت تفســـد عقائدهم وتصوراتهم،كما تفسد حياتهم وأوضاعهم بالدينونة لغير اللّه – سبحانه – سواء كانت هذه الدينونة لطوطم أو حجر أو شجر أو نجم أو كوكب،أو روح أو أرواح شتى أو كانت هذه الدينونة لبشر من البشر:كاهن أم ساحر أم حاكم ..فكلها سواء في دلالتها على الانحراف عن التوحيد إلى الشرك،والخروج من الإسلام إلى الجاهلية.

ومن هذا التتابع التاريخي – الذي يقصه اللّه سبحانه في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – يتبين خطأ المنهج الذي يتبعه علماء الدين المقارن وخطأ النتائج التي يصلون إليها عن طريقه ..

خطأ المنهج لأنه يتبع خط الجاهليات التي عرفتها البشرية،ويهمل خط التوحيد الذي جاء به الرسل صلوات اللّه وسلامه عليهم – وهم حتى في تتبعهم لخط الجاهليات لا يرجعـــون إلا لما حفظته آثار العهود الجاهلية التي يحوم عليها التاريخ – ذلك المولود الحدث الذي لا يعرف من تاريخ البشرية إلا القليل ولا يعرف هذا القليل إلا عن سبيل الظن والترجيح! – وحتى حين يصلون إلى أثر من آثار التوحيد الذي جاءت به الرسالات رأســـا في إحـــدى الجاهليات التاريخية في صورة توحيد مشوه كتوحيد أخناتون مـــثلا في الديانـــة المصـــرية

[١٢١] – ص ١٨٨٢ – ١٨٨٦ من هذا الجزء.

القديمة فإنهم يتعمدون إغفال أثر رسالة التوحيد – ولو على سبيل الاحتمال – وقد جاء أخناتون في مصر بعد عهد يوسف – عليه السلام – وتبشيره بالتوحيد كما جاء في القرآن الكريم – حكاية عن قوله لصاحبي السجن في سورة يوسف –:« إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ،وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ.وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ،ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ،ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ،وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ.يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ؟ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ،أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ،ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ،وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» ...(يوسف:٣٧ – ٤٠)

وهم إنما يفعلون ذلك،لأن المنهج كله إنما قام ابتداء على أساس العداء والرفض للمنهج الديني،بسبب ما ثار بين الكنيسة الأوربية والبحث العلمي في كل صوره في فترة من فترات التاريخ.فبدأ المنهج وفي عزم أصحابه أن يصلوا إلى ما يكذب مزاعم الكنيسة من أساسها،للوصول إلى تحطيم الكنيسة ذاتها.ومن أجل هذا جاء منهجا منحرفا منذ البدء،لأنه يتعمد الوصول سلفا إلى نتائج معينة،قبل البدء في البحث! وحتى حين هدأت حدة العداء للكنيسة بعد تحطيم سيطرتها العلمية والسياسية والاقتصادية الغاشمة فإن المنهج استمر في طريقه.لأنه لم يستطع أن يتخلص من أساسه الذي قام عليه،والتقاليد التي تراكمت على هذا الأساس،حتى صارت من أصول المنهج!

أما خطأ النتائج فهو ضرورة حتمية لخطأ المنهج من أساسه.هذا الخطأ الذي طبع نتائج المنهج كلها بهذا الطابع ..

على أنه أيا كان المنهج وأيا كانت النتائج التي يصل إليها فإن تقريراته مخالفة مخالفة أساسية للتقريرات الإلهية كما يعرضها القرآن الكريم ..وإذا جاز لغير مسلم أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة قول اللّه سبحانه في مسألة من المسائل فإنه لا يجوز لباحث يقدم بحثه للناس على أنه «مسلم» أن يأخذ بتلك النتائج.

ذلك أن التقريرات القرآنية في مسألة الإسلام والجاهلية،وسبق الإسلام للجاهلية في التاريخ البشري،وسبق التوحيد للتعدد والتثنية ..قاطعة،وغير قابلة للتأويل.فهي مما يقال عنه:إنه معلوم من الدين بالضرورة.

وعلى من يأخذ بنتائج علم الأديان المقارنة في هذا الأمر،أن يختار بين قول اللّه سبحانه وقول علماء الأديان.أو بتعبير آخر:أن يختار بين الإسلام وغير الإسلام! لأن قول اللّه في هذه القضية منطوق وصريح،وليس ضمنيا ولا مفهوما! وعلى أية حال فإن هذا ليس موضوعنا الذي نستهدفه في هذا التعقيب الأخير ..إنما نستهدف هنا رؤية الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في التاريخ البشري والإسلام والجاهلية يتعاوران البشرية والشيطان يستغل الضعف البشري وطبيعة التكوين لهذا المخلوق المزدوج الطبيعة والاتجاه،ويجتال الناس عن الإسلام بعد أن يعرفوه،إلى الجاهلية فإذا بلغت هذه الجاهلية مداها بعث اللّه للناس رسولا يردهم إلى الإسلام.ويخرجهم من الجاهلية.وأول ما يخرجهم منه هو الدينونة لغير اللّه سبحانه من الأرباب المتفرقة ..وأول ما يردهم إليه هو الدينونة للّه وحده في أمرهم كله،لا في الشعائر التعبدية وحدها،ولا في الاعتقاد القلبي وحده.

إن هذه الرؤية تفيدنا في تقدير موقف البشرية اليوم،وفي تحديد طبيعة الدعوة الإسلامية كذلك ..

إن البشرية اليوم – بجملتها – تزاول رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها آخر رسول – محمد ﷺ– وهي جاهلية تتمثل في صور شتى:

بعضها يتمثل في إلحاد باللّه سبحانه،وإنكار لوجوده ..فهي جاهلية اعتقاد وتصور،كجاهلية الشيوعيين.

وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود اللّه سبحانه،وانحراف في الشعائر التعبدية وفي الدينونة والاتباع والطاعة،كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم ..وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك.

وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود اللّه سبحانه،وأداء للشعائر التعبدية.مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه.ومع شرك كامل في

الدينونة والاتباع والطاعة.وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم «مسلمين» ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه - بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ومع استسلامهم ودينونتهم لغير اللّه من العبيد! وكلها جاهلية.وكلها كفر باللّه كالأولين.أو شرك باللّه كالآخرين [١٢٢] ..

إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجملتها قد ارتدت إلى جاهلية شاملة،وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإسلام مرات متعددة،كان آخرها الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ..وهذا بدوره يحدد طبيعة الدور الأساسي لطلائع البعث الإسلامي،والمهمة الأساسية التي عليها أن تقوم بها للبشرية ونقطة البدء الحاسمة في هذه المهمة.

إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام كرة أخرى،والخروج من هذه الجاهلية النكدة التي ارتدت إليها.على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسي:وهو الاعتقاد بألوهية اللّه وحده،وتقديم الشعائر التعبدية للّه وحده والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها للّه وحده ..وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الإسلام ولا تحتسب للناس صفة المسلمين ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يرتبها الإسلام لهم في أنفسهم وأموالهم كذلك.وأن تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعا،يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية،ويصمهم بالكفر أو بالشرك قطعا ..

إنها دورة جديدة من دورات الجاهلية التي تعقب الإسلام.فيجب أن تواجهها دورة من دورات الإسلام الذي يواجه الجاهلية،ليرد الناس إلى اللّه مرة أخرى،ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده ..

ولا بد أن يصل الأمر إلى ذلك المستوي من الحسم والوضوح في نفوس العصبة المسلمة التي تعاني مواجهة الجاهلية الشاملة في هذه الفترة النكدة من حياة البشرية ..فإنه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الإسلامي عن أداء واجبها في هذه الفترة

---

[١٢٢] - يراجع فصل:«لا إله إلا اللّه منهج حياة» في كتاب:«معالم في الطريق» نشر «دار الشروق»

الحرجة من تاريخ البشرية وتتأرجح أمام المجتمع الجاهلي – وهي تحسبه مجتمعا مسلما – وتفقد تحديد أهدافها الحقيقية،بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف البشرية فعلا،لا من حيث تزعم! والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع ..بعيدة جدا ..[١٢٣]

وما كان لدين أن يقوم في الأرض،وأن يقيم نظاما للبشر،قبل أن يقرر هذه القواعد.

فتوحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة ؛ وبين تحرير البشرية من عقال الوهم والخرافة والسلطان الزائف،أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواتهم،وللوسطاء عند الله من خلقه! وللملوك والرؤساء والحكام الذين يغتصبون أخص خصائص الألوهية – وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية – فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة.

وما من نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي أو دولي،يمكن أن يقوم على أسس واضحة فاصلة ثابتة،لا تخضع للهوى والتأويلات المغرضة،إلا حين تستقر عقيدة التوحيد هكذا بسيطة دقيقة.

وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل والخوف والقلق ؛ ويستمتعوا بالكرامة الحقيقة التي أكرمهم بها الله،إلا حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية،ويتجرد منها العبيد في كل صورة من الصور.

وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام ؛ ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت،على ألوهية الله – سبحانه – للكون ؛ وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية:إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس،الذي يحكمهم بشرعه،ويصرفهم بأمره،ويدينهم بطاعته ؟

لقد كان الطواغيت المجرمون في الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه في حياة الناس،ويذلونهم بهذا الاغتصاب لسلطان الله،ويجعلونهم عبيدا لهم من دون الله.وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائما لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدي الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعي ..الله سبحانه ..

---

[١٢٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٧١]

والله – سبحانه – غني عن العالمين.لا ينقص في ملكه شيئا عصيان العصاة وطغيان الطغاة.ولايزيد في ملكه شيئا طاعة الطائعين وعبادة العابدين ..ولكن البشر – هم أنفسهم – الذين يذلون ويصغرون ويسفلون حين يدينون لغير الله من عباده ؛ وهم الذين يعزون ويكرمون ويستعلون حين يدينون لله وحده،ويتحررون من العبودية للعبيد ..ولما كان الله – سبحانه – يريد لعباده العزة والكرامة والاستعلاء فقد أرسل رسله ليردوا الناس إلى عبادة الله وحده.وليخرجوهم من عبادة العبيد ..لخيرهم هم أنفسهم ..والله غني عن العالمين.

إن الحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي يريده الله للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يدينوا لله وحده،وأن يخلعوا من رقابهم نير الدينونة لغير الله.ذلك النير المذل لكرامة الإنسان في أية صورة قد كان! والدينونة لله وحده تتمثل في ربوبيته للناس وحده.والربوبية تعني القوامة على البشر،وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند الله،لا من عند أحد سواه.[١٢٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٢٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٤٨٥)

إننا نقف من هذه القصة على حقيقة أولية بارزة يقصها علينا الحكيم الخبير ..إن موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الإنساني موكب واحد موصول،يقوده رسل اللّه الكرام،داعين بحقيقة واحدة،جاهرين بدعوة واحدة،سائرين على منهج واحد ..كلهم يدعو إلى ألوهية واحدة،وربوبية واحدة وكلهم لا يدعو مع اللّه أحدا،ولا يتوكل على أحد غيره،ولا يلجأ إلى ملجأ سواه،ولا يعرف له سندا إلا إياه.

وأمر الاعتقاد في اللّه الواحد – إذن – ليس كما يزعم «علماء الدين المقارن» أنه تطور وترقى من التعديد إلى التثنية إلى التوحيد ومن عبادة الطواطم والأرواح والنجوم والكواكب إلى عبادة اللّه الواحد وأنه تطور وترقى كذلك بتطور وترقي التجربة البشرية والعلم البشري،وبتطور وترقي الأنظمة السياسية وانتهائها إلى الأوضاع الموحدة تحت سلطان واحد ...

إن الاعتقاد في اللّه الواحد جاءت به الرسالات منذ فجر التاريخ و لم تتغير هذه الحقيقة و لم تتبدل في رسالة واحدة من الرسالات ولا في دين واحد من الأديان السماوية.كما يقص علينا الحكيم الخبير.

ولو قال أولئك «العلماء»:إن قابلية البشرية لعقيدة التوحيد التي جاء بها الرسل كانت تترقى من عهد رسول إلى عهد رسول وإن الوثنيات الجاهلية كانت تتأثر بعقائد التوحيد المتوالية التي كان موكب الرسل الكرام يواجه بها هذه الوثنيات حينا بعد حين.حتى جاء زمان كانت عقيدة التوحيد أكثر قبولا لدى جماهير الناس مما كانت،بفعل توالي رسالات التوحيد وبفعل العوامل الأخرى التي يفردونها بالتأثير ...لو قال أولئك «العلماء» قولا كهذا لساغ ..ولكنهم إنما يتأثرون بمنهج في البحث يقوم ابتداء على قاعدة من العداء الدفين القديم للكنيسة في أوربا – حتى ولو لم يلحظه العلماء المعاصرون! – ومن الرغبة الخفية – الواعية أو غير الواعية – في تحطيم المنهج الديني في التفكير وإثبات أن الدين لم يكن قط وحيا من عند اللّه إنما كان اجتهادا من البشر،ينطبق عليه ما ينطبق على تطورهم

في التفكير والتجربة والمعرفة العلمية سواء بسواء ..ومن ذلك العداء القديم ومن هذه الرغبة الخفية ينبثق منهج علم الأديان المقارن ويسمى مع ذلك «علما» ينخدع به الكثيرون!

وإذا جاز أن يخدع أحد بمثل هذا «العلم» فإنه لا ينبغي لمسلم يؤمن بدينه،ويحترم منهج هذا الدين في تقرير مثل هذه الحقيقة أن يخدع لحظة واحدة وأن يدلي بقول يصطدم اصطداما مباشرا مع مقررات دينه،ومع منهجه الواضح في هذا الشأن الخطير [١٢٥] ..

هذا الموكب الكريم من الرسل واجه البشرية الضالة - إذن - بدعوة واحدة،وعقيدة واحدة،وكذلك واجهت الجاهلية ذلك الموكب الكريم،وهذه الدعوة الواحدة بالعقيدة الواحدة،مواجهة واحدة - كما يعرضها السياق القرآني مغضيا عن الزمان والمكان،مبرزا للحقيقة الواحدة الموصولة من وراء الزمان والمكان - وكما أن دعوة الرسل لم تتبدل،فكذلك مواجهة الجاهلية لم تتبدل!

إنها حقيقة تستوقف النظر حقا! ..إن الجاهلية هي الجاهلية على مدار الزمان ..إن الجاهلية ليست فترة تاريخية ولكنها وضع واعتقاد وتصور وتجمع عضوي على أساس هذه المقومات ..

والجاهلية تقوم ابتداء على أساس من دينونة العباد للعباد ومن تأليه غير اللّه.أو من ربوبية غير اللّه - وكلاهما سواء في إنشاء الجاهلية - فسواء كان الاعتقاد قائما على تعدد الآلهة أو كان قائما على توحيد الإله مع تعدد الأرباب - أي المتسلطين - فهو ينشئ الجاهلية بكل خصائصها الثانوية الأخرى! ودعوة الرسل إنما تقوم على توحيد اللّه وتنحية الأرباب الزائفة،وإخلاص الدين للّه - أي إخلاص الدينونة للّه وإفراده سبحانه بالربوبية،أي الحاكمية والسلطان - ومن ثم تصطدم اصطداما مباشرا بالقاعدة التي تقوم عليها الجاهلية وتصبح بذاتها خطرا على وجود الجاهلية.وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام في تجمع خاص،يأخذ أفراده من التجمع الجاهلي وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد،ومن

---

[١٢٥] - يراجع ما كتب عن هذه القضية في الجزء الثاني عشر ص ١٨٨٢ - ١٨٨٦ من هذه الطبعة المنقحة.

ناحية القيادة،ومن ناحية الولاء ..الأمر الذي لا بد منه للدعوة الإسلامية في كل مكـــان وفي كل زمان ..

وعند ما يشعر التجمع الجاهلي – بوصفه كيانا عضويا واحدا متساندا – بالخطر الـــذي يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية كما يتهدد وجوده ذاتـــه بتمثـــل الاعتقـــاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له ..فعندئذ يسفر التجمع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام!

إنها المعركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام! المعركة بين تجمعـــين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماما للقاعدة التي يقـــوم عليهـــا التجمـــع الآخر.فالتجمع الجاهلي يقوم على قاعدة تعدد الآلهة،أو تعدد الأرباب،ومن ثم يدين فيـــه العباد للعباد.والتجمع الإسلامي يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد ..

ولما كان التجمع الإسلامي إنما يأكل في كل يوم من جسم التجمع الجاهلي،في أول الأمر وهو في دور التكوين،ثم بعد ذلك لا بد له من مواجهة التجمع الجاهلي لتســـلم القيـــادة منه،وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده ..لما كانت هذه كلـــها حتميات لا بد منها متى سارت الدعوة الإسلامية في طريقها الصـــحيح،فإن الجاهليـــة لا تطيق منذ البدء دعوة الإسلام ..ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام! ..إنها مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاحتياج ومواجهة الدفاع عـــن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد! وإذ كـــان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها،فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت،لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام! ..

إن الجاهلية لم تخدع نفسها في حقيقة المعركة وكذلك لم يخدع الرسل الكرام – صلوات اللّه وسلامه عليهم – أنفسهم ولا المؤمنين بهم في حقيقة المعركة ..«وَقالَ الَّذينَ كَفَـــرُوا لِرُسُلِهِمْ:لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» ..فهم لا يقبلون من الرسل والـــذين آمنوا معهم،أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدتهم وبقيادتهم وبتجمعهم الخاص.

إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم،ويندمجوا في تجمعهم،ويذوبوا في هذا التجمع.أو أن يطردوهم بعيدا وينفوهم من أرضهم ..

و لم يقبل الرسل الكرام أن يندمجوا في التجمع الجاهلي،ولا أن يذوبوا فيه،ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص ..هذا التجمع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التي يقوم عليها التجمع الجاهلي ..و لم يقولوا - كما يقول ناس ممن لا يدركون حقيقة الإسلام ..ولا حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات -:حسنا! فلنندمج في ملتهم كي نزاول دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم!!!

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي،لا بد أن يتبعه حتما تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه .وليس في ذلك اختيار ..إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات ..هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساسا بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس للّه وحده وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان.كما يجعل كل عضو مسلم يتميع في المجتمع الجاهلي خادما للتجمع الجاهلي لا خادما لإسلامه كما يظن بعض الأغرار[١٢٦]!

ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى اللّه في جميع الأحوال.وهي أن تحقيق وعد اللّه لأوليائه بالنصر والتمكين والفصل بينهم وبين قومهم بالحق،لا يقع ولا يكون،إلا بعد تميز أصحاب الدعوة وتحيزهم وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم ..فذلك الفصل من اللّه لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي،ذائبون في أوضاعه عاملون في تشكيلاته ..وكل فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعد اللّه بالنصر والتمكين ..وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى اللّه،وهم واعون مقدرون ..[١٢٧]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٢٦] - يراجع بتوسع فصل:«نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» في كتاب «معالم في الطريق». «دار الشروق».

[١٢٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٤٥]

قال تعالى:{رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا} [البقرة:٢٨٦]..

وهو دعاء ينبعث من وراثة الأمة المسلمة لتراث الرسالة كله،ومعرفتهم – كما علمهم ربهم في هذا القرآن – بما كان من سلوك الأمم التي جاءتها الرسالات قبلهم وما حملهم الله من الآصار والأثقال عقوبة لهم على بعض ما كان منهم.فقد حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات بعملهم.وفي آية الأنعام:«وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ،وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» «سورة الأنعام آية ١٤٦.» ..وكتب عليهم قتل أنفسهم تكفيرا عن عبادتهم للعجل كما سبق في أول هذه السورة.وحرم عليهم «السَّبْتِ» أن يبتغوا فيه تجارة أو صيدا ..وهكذا فالمؤمنون يدعون ربهم ألا يحمل عليهم أثقالا كالتي حملها على الذين من قبلهم،وقد بعث الله النبي الأمي يضع عن المؤمنين به من البشر كافة:«إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ» ..فجاءت هذه العقيدة سمحة ميسرة،هينة لينة،تنبع من الفطرة وتتبع خط الفطرة،وقيل للرسول – ﷺ – «وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى».على أن الإصر الأكبر الذي رفعه الله عن كاهل الأمة المسلمة،والذي حمله الله على عاتق الأمم التي استخلفها في الأرض قبلهم فنقضت عهد الاستخلاف وحادت عنه ..هذا الإصر الأكبر هو إصر العبودية للبشر.عبودية العبد للعبد.ممثلة في تشريع العبد للعبد.وفي خضوع العبد للعبد لذاته أو لطبقته أو لجنسه ..فهذا هو الإصر الأكبر الذي أطلق الله عباده المؤمنين منه،فردهم إلى عبادته وحده وطاعته وحده،وتلقي الشريعة منه وحده.وحرر بهذه العبودية لله الواحد الأحد أرواحهم وعقولهم وحياتهم كلها من العبودية للعبيد! إن العبودية لله وحده – متمثلة في تلقي الشرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده – هي نقطة الانطلاق والتحرر البشري.الانطلاق والتحرر من سلطان الجبارين والطغاة،ومن سلطان السدنة والكهنة،ومن سلطان الأوهام والخرافات،ومن سلطان العرف والعادة،ومن سلطان الهوى والشهوة.ومن كل سلطان

زائف يمثل الإصر الذي يلوي أعناق البشر ويخفض جباههم لغير الواحد القهـار.ودعـاء المؤمنين:«وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا»:يمثل شـعورهم بنعمـة الانطلاق والتحرر من العبودية للعبيد كما يمثل خوفهم من الارتـداد إلى ذلـك الـدرك السحيق.[١٢٨]



[١٢٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٦٠٥)

الراسخون في العلم يقولون

قال تعالى:{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) } [آل عمران:٧ - ٩].

هذا هو حال الراسخين في العلم مع ربهم وهو الحال اللائق بالإيمان المنبثق من الطمأنينة لقول الله ووعده والثقة بكلمته وعهده والمعرفة برحمته وفضله والإشفاق مع هذا من قضائه المحكم وقدره المغيب والتقوى والحساسية واليقظة التي يفرضها الإيمان على قلوب أهله،فلا تغفل ولا تغتر ولا تنسى في ليل أو نهار ..

والقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال.قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش.قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة.قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة.قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده.

قيمة الاهتمامات الرفيعة الكبيرة بعد اللهو بالاهتمامات الصغيرة الحقيرة ..ويدرك أن الله منحه بالإيمان كل هذا الزاد ..ومن ثم يشفق من العودة إلى الضلال،كما يشفق السائر في الدرب المستقيم المنير أن يعود إلى التخبط في المنعرجات المظلمة.وكما يشفق من ذاق نداوة الظلال أن يعود إلى الهجير القائظ والشواظ! وفي بشاشة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق جفاف الإلحاد وشقاوته المريرة.وفي طمأنينة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق شقوة الشرود والضلال![١٢٩]



[١٢٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٦٣٣)

أول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية

إن أول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية،فتتوحد العبودية ..لا عبودية إلا لله.ولا طاعة إلا لله.ولا تلقي إلا عن الله.فليس إلا لله تكون العبودية.

وليس إلا لله تكون الطاعة.وليس إلا عن الله يكون التلقي ..التلقي في التشريع،والتلقي في القيم والموازين،والتلقي في الآداب والأخلاق.والتلقي في كل ما يتعلق بنظام الحياة البشرية ..وإلا فهو الشرك أو الكفر.مهما اعترفت الألسنة،ومهما اعترفت القلوب الاعتراف السلبي الذي لا ينشئ آثاره في حياة الناس العامة في استسلام وطاعة واستجابة وقبول.

إن هذا الكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله،إلا أن يكون هناك إله واحد،يدبر أمره:و «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا» ..وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية:تعبد العبيد والتشريع لهم في حياتهم،وإقامة الموازين لهم.فمن ادعى لنفسه شيئا من هذا كله فقد ادعى لنفسه أظهر خصائص الألوهية وأقام نفسه للناس إلها من دون الله.

وما يقع الفساد في الأرض كما يقع عندما تتعدد الآلهة في الأرض على هذا النحو.عندما يتعبد الناس الناس.عندما يدعي عبد من العبيد أن له على الناس حق الطاعة لذاته وأن له فيهم حق التشريع لذاته وأن له كذلك حق إقامة القيم والموازين لذاته.فهذا هو ادعاء الألوهية ولو لم يقل كما قال فرعون:«أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى» ..والإقرار به هو الشرك بالله أو الكفر به ..وهو الفساد في الأرض أقبح الفساد.

ومن ثم يتلو ذلك التهديد في السياق دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء:إلى عبادة الله وحده،وعدم الإشراك به،وألا يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله ..وإلا فهي المفاصلة التي لا مصاحبة بعدها ولا مجادلة:«قُلْ:يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ:أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ،وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً،وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ.فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا:اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» ..

وإنها لدعوة منصفة من غير شك.دعوة لا يريد بها النبي – ﷺ – أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين ..كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد.لا يعلو

بعضهم على بعض،ولا يتعبد بعضهم بعضا.دعوة لا يأباها إلا متعنت مفسد،لا يريـــد أن يفيء إلى الحق القويم.

إنها دعوة إلى عبادة الله وحده لا يشركون به شيئا.لا بشرا ولا حجرا.ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضا من دون الله أربابا.لا نبيا ولا رسولا.فكلهم لله عبيد.إنمـــا اصـــطفاهم الله للتبليغ عنه،لا لمشاركته في الألوهية والربوبية.

«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا:اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».فإن أبوا عبادة الله وحده دون شريك.والعبودية لله وحده دون شريك.وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد من الألوهية ..إن تولـــوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ..

وهذه المقابلة بين المسلمين ومن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله،تقـــرر بوضـــوح حاسم من هم المسلمون.المسلمون هم الذين يعبدون الله وحده ويتعبدون لله وحـــده ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ..هذه هي خصيصتهم التي تميزهم من سائر الملـــل والنحل وتميز منهج حياتهم من مناهج حياة البشر جميعا.

وإما أن تتحقق هذه الخصيصة فهم مسلمون،وإما ألا تتحقق فما هم بمسلمين مهما ادعوا أنهم مسلمون! إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد.والنظام الإســـلامي هـــو وحده من بين سائر النظم الذي يحقق هذا التحرر ..

إن الناس في جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ..يقـــع هـــذا في أرقى الديمقراطيات كما يقع في أحط الديكتاتوريات سواء ..إن أول خصائص الربوبية هو حق تعبد الناس.حق إقامة النظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين ..وهذا الحق في جميع الأنظمة الأرضية يدعيه بعض الناس – في صورة من الصور – ويرجع الأمر فيـــه إلى مجموعة من الناس – على أي وضع من الأوضاع – وهذه المجموعـــة الـــتي تخضـــع الآخرين لتشريعها وقيمها وموازينها وتصوراتها هي الأرباب الأرضية التي يتخذها بعـــض الناس أربابا من دون الله ويسمحون لها بادعاء خصائص الألوهية والربوبية،وهم بـــذلك يعبدونها من دون الله،وإن لم يسجدوا لها ويركعوا.فالعبودية عبادة لا يتوجه بها إلا لله.

وفي النظام الإسلامي وحده يتحرر الإنسان من هذه الربقة ..ويصبح حرا.حـــرا يتلقـــى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من الله وحده،شأنه في هذا شأن كل إنسان آخر مثله.فهو وكل إنسان آخر على سواء.كلهم يقفـــون في مســـتوى واحد،ويتطلعون إلى سيد واحد،ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله.

والإسلام – بهذا المعنى – هو الدين عند الله.وهو الذي جاء به كل رسول مـــن عنـــد الله ..لقد أرسل الله الرسل بهذا الدين ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله.ومن جور العباد إلى عدل الله ..فمن تولى عنه فليس مسلما بشهادة الله.مهما أول المؤولون،وضـــلل المضللون ..«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» ..[130]



[130] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٦٧٤)

قال تعالى: {وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام:١٣٩] ..

وَخَصَّصُوا نَتَاجَ البَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ لِذُكُورِهِمْ،وَحَرَّمُوهُ عَلَى إِنَاثِهِمْ،فَلاَ تَشْرَبُ الإِنَاثَ مِنْ لَبَنِ هَذِهِ الأَنْعَامِ،وَإِذَا وَلَدَتْ ذَكَراً كَانَ لَحْمُهُ مُخَصَّصاً لِلْذُكُورِ دُونَ الإِنَاثِ،أَمَّا إِذَا وَلَدَتْ أُنْثَى فَتُتْرَكُ لِلنِّتَاجِ.وَإِذَا وَلَدَتْ مَوْلُوداً مَيِّتاً اشْتَرَكَ فِي أَكْلِهِ الذُّكُورُ وَالإِنَاثُ .

وَسَيَجْزِيهِمِ اللهُ تُعَالَى عَلَى قَوْلِهِم الكَذِبَ فِي ذَلِكَ،إِذِ ادَّعُوا أَنَّ هَذَا التَّحْرِيمَ قَدْ أَمَرَهُمْ بِهِ اللهُ تَعَالَى(سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ)إِنَّهُ تَعَالَى حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ،عَلِيمٌ بِأَعْمَالِ العِبَادِ.[١٣١]

لقد استطردوا في أوهام التصورات والتصرفات،النابعة من انحرافات الشرك والوثنية،ومن ترك أمر التحليل والتحريم للرجال مع الادعاء بأن ما يشرعه الرجال هو الذي شرعه الله.استطردوا في هذه الأوهام فقالوا عن الأجنة التي في بطون بعض الأنعام – ولعلها تلك المسماة البحيرة والسائبة والوصيلة – إنها خالصة للذكور منهم حين تنتج،محرمة على الإناث،إلا أن تكون ميتة فيشارك فيها الإناث الذكور ..هكذا بلا سبب ولا دليل ولا تعليل،إلا أهواء الرجال التي يصوغون منها دينا غامضا ملتبسا في الأفهام.

ويعقب السياق القرآني تعقيب التهديد لمن صاغوا هذه الشرائع وكذبوا على الله فوصفوها بأنها من شرع الله:«سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ» ..«إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» ..

يعلم حقائق الأحوال،ويتصرف فيها بحكمة،لا كما يتصرف هؤلاء المشركون الجهال.

وإن الإنسان ليعجب،وهو يستعرض مع السياق القرآني هذه الضلالات،وما تحمله أصحابها من أعباء وخسائر وتضحيات ..يعجب لتكاليف الانحراف عن شرع الله ونهجه،تلك التي يتحملها المنحرفون عن صراط الله المستقيم.ولأثقال الخرافة والغموض والوهم التي يتبعها الضالون.ولأغلال العقيدة الفاسدة في المجتمع والضمير ..نعم يعجب للعقيدة المنحرفة تكلف الناس حتى فلذات أكبادهم،فوق ما تكلفهم من تعقيد الحياة

[١٣١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٩٢٩، بترقيم الشاملة آليا)

واضطرابها،والسير فيها بلا ضابط،سوى الوهم والهوى والتقليد.وأمامهم التوحيد البسيط الواضح يطلق الضمير البشري من أوهام الوهم والخرافة ويطلق العقل البشري من عقال التقليد الأعمى ويطلق المجتمع البشري من الجاهلية وتكاليفها ويطلق «الإنسان» من العبودية للعبيد – سواء فيما يشترعونه من قوانين،وما يصنعونه من قيم وموازين – ويحل محل هذا كله عقيدة واضحة مفهومة مضبوطة،وتصورا واضحا ميسرا مريحا،ورؤية لحقائق الوجود والحياة كاملة عميقة،وانطلاقا من العبودية للعبيد،وارتفاعا إلى مقام العبودية لله وحده ..المقام الذي لا يرتقي إلى أعلى درجاته إلا الأنبياء! ألا إنها الخسارة الفادحة – هنا في الدنيا قبل الآخرة – حين تنحرف البشرية عن صراط الله المستقيم وتتردى في حمأة الجاهلية وترجع إلى العبودية الذليلة لأرباب من العبيد:«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ – سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ – وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ – افْتِراءً عَلَى اللَّهِ – قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ» ..خسروا الخسارة المطلقة.خسروا في الدنيا والآخرة.خسروا أنفسهم وخسروا أولادهم.خسروا عقولهم وخسروا أرواحهم.خسروا الكرامة التي جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد حين أسلموها لحاكمية العبيد! وقبل ذلك كله خسروا الهدى بخسارة العقيدة،خسروا الخسارة المؤكدة،وضلوا الضلال الذي لا هداية فيه:«قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ».[١٣٢]



[١٣٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ١٦٦٥)

حال المجتمعات البشرية اليوم

إن المجتمعات البشرية اليوم – بجملتها – مجتمعات جاهلية.وهي من ثم مجتمعات «متخلفة» أو «رجعية»! بمعنى أنها «رجعت» إلى الجاهلية،بعد أن أخذ الإسلام بيـــدها فاســـتنقذها منها.والإسلام اليوم مدعو لاستنقاذها من التخلف والرجعية الجاهلية،وقيادتها في طريـــق التقدم و «الحضارة» بقيمها وموازينها الربانية.

إنه حين تكون الحاكمية العليا لله وحده في مجتمع – متمثلة في سيادة شريعته الربانيـــة – تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحررا حقيقيا كاملا من العبوديـــة للهوى البشري ومن العبودية للعبيد.

وتكون هذه هي الصورة الوحيدة للإسلام أو للحضارة – كما هي في ميـــزان الله – لأن الحضارة التي يريدها الله للناس تقوم على قاعدة أساسية من الكرامة والتحرر لكل فرد.ولا كرامة ولا تحرر مع العبودية لعبد ..لا كرامة ولا تحرر في مجتمع بعضه أرباب يشـــرعون ويزاولون حق الحاكمية العليا وبعضهم عبيد يخضعون ويتبعون هؤلاء الأرباب! والتشـــريع لا ينحصر في الأحكام القانونية.فالقيم والموازين والأخلاق والتقاليد ..كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه شاعرين أو غير شاعرين! ..ومجتمع هذه صفته هو مجتمع رجعي متخلـــف ..أو بالاصطلاح الإسلامي:«مجتمع جاهلي مشرك»! وحين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكر ومنهج الحياة.ويكون هذا كله صادرا من الله،لا من هـــوى فرد،ولا من إرادة عبد.فإن هذا المجتمع يكون مجتمعا متحضرا متقـــدما.أو بالاصـــطلاح الإسلامي:مجتمعا ربانيا مسلما ..لأن التجمع حينئذ يكون ممثلا لأعلى ما في «الإنســـان» من خصائص – خصائص الروح والفكر – فأما حين تكون آصرة التجمع هـــي الجـــنس واللون والقوم والأرض ...وما إلى ذلك من الروابط ..فإنه يكون مجتمعا رجعيا متخلفـــا ..أو بالاصطلاح الإسلامي:مجتمعا جاهليا مشركا ..

ذلك أن الجنس واللون والقوم والأرض ...وما إلى ذلك من الروابط لا تمثل الحقيقة العليا في «الإنسان».

فالإنسان يبقى إنسانا بعد الجنس واللون والقوم والأرض.ولكنه لا يبقى إنسانا بعد الروح والفكر! ثم هو يملك بإرادته الإنسانية الحرة – وهي أسمى ما أكرمه الله بــه – أن يغــير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته من ضلال إلى هدى عن طريــق الإدراك والفهــم والاقتناع والاتجاه.ولكنه لا يملك أبدا أن يغير جنسه،ولا لونه،ولا قومه.لا يملك أن يحــدد سلفا مولده في جنس ولا لون كما لا يمكنه أن يحــدد ســلفا مولــده في قــوم أو أرض ..فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادهم الحرة هو بدون شك أرقى وأمثل وأقوم من المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمور خارجة عن إرادهم ولا يد لهم فيهــا! وحين تكون «إنسانية الإنسان» هي القيمة العليا في مجتمع وتكون «الخصائص الإنسانية» فيه موضع التكريم والرعاية،يكون هذا المجتمــع متحضــرا متقــدما ..أو بالاصــطلاح الإسلامي:ربانيا مسلما ..فأما حين تكون «المادة» – في أية صورة من صــورها – هــي القيمة العليا ..سواء في صورة «النظرية» كما في الماركسية،أو في صورة «الإنتاج المادي» كما في أمريكا وأوربا وسائر المجتمعات التي تعتبر الإنتاج المادي هو القيمة العليا،التي تهدر في سبيلها كل القيم والخصائص الإنسانية – وفي أولها القيم الأخلاقية – فإن هذا المجتمــع يكون مجتمعا رجعيا متخلفا ..أو بالاصطلاح الإسلامي:مجتمعا جاهليا مشركا ..

إن المجتمع الرباني المسلم لا يحتقر المادة لا في صورة «النظرية» باعتبار المادة هي التي تؤلف كيان هذا الكون الذي نعيش فيه ولا في صورة «الإنتاج المادي» والاستمتاع به.فالإنتاج المادي من مقومات خلافة الإنسان في الأرض بعهد الله وشرطه والاستمتاع بالطيبات منها حلال يدعو الإسلام إليه – كما سنرى في سياق هذه السورة – ولكنه لا يعتبرهــا هــي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص «الإنسان» ومقوماته! كما تعتبرها المجتمعــات الجاهلية ..الملحدة أو المشركة ..

وحين تكون القيم «الإنسانية» والأخلاق «الإنسانية» – كما هي في ميزان الله – هــي السائدة في مجتمع،فإن هذا المجتمع يكون متحضرا متقدما ..أو بالاصــطلاح الإســلامي ..ربانيا مسلما ..والقيم «الإنسانية» والأخلاق «الإنسانية» ليست مســألة غامضــة ولا مائعة وليست كذلك قيما وأخلاقا متغيرة لا تستقر على حال – كما يزعم الذين يريدون

أن يشيعوا الفوضى في الموازين،فلا يبقى هنا لك أصل ثابت يرجع إليه في وزن ولا تقييم ..إنها القيم والأخلاق التي تنمي في الإنسان «خصائص الإنسان» التي ينفرد بها دون الحيوان.وتغلب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويجعل منه إنسانا.وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه الجوانب المشتركة بينه وبين الحيوان ..وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم وثابت،لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها «التطوريون»! عندئذ لا تكون هناك أخلاق زراعية وأخرى صناعية.ولا أخلاق رأسمالية وأخرى اشتراكية.ولا أخلاق صعلوكية وأخرى برجوازية! لا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومن مستوى المعيشة،على اعتبار أن هذه العوامل مستقلة في صنع القيم والأخلاق والاصطلاح عليها،وحتمية في نشأتها وتقريرها ..إنما تكون هناك فقط «قيم وأخلاق إنسانية» يصطلح عليها المسلمون في المجتمع المتحضر.«وقيم وأخلاق حيوانية» – إذا صح هذا التعبير – يصطلح عليها الناس في المجتمع المتخلف ..أو بالاصطلاح الإسلامي تكون هناك قيم وأخلاق ربانية إسلامية وقيم وأخلاق رجعية جاهلية! إن المجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية،لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة،مهما تبلغ من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي! إن هذا المقياس لا يخطئ في قياس مدى التقدم في الإنسان ذاته.

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم الأخلاقي بحيث يتخلى عن كل ما له علاقة بالتميز الإنساني عن الحيوان.ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية – ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة – رذيلة أخلاقية! إن المفهوم «الأخلاقي» ينحصر في المعاملات الشخصية والاقتصادية والسياسية – أحيانا في حدود مصلحة الدولة! – والكتاب والصحفيون والروائيون وكل أجهزة التوجيه والإعلام في هذه المجتمعات الجاهلية تقولها صريحة للفتيات والزوجات والفتيان والشبان:إن الاتصالات الجنسية الحرة ليست رذائل أخلاقية! مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة – من وجهة النظر «الإنسانية».وبمقياس خط التقدم الإنساني ..وهي كذلك غير إسلامية ..لأن خط الإسلام

هو خط تحرير الإنسان من شهواته،وتنمية خصائصه الإنسانية،وتغلبها على نزعاته الحيوانية ..[133]



[133] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ١٧٠٦)

العبودية لله لا تلتقي مع عبودية غيره أبدا

قال تعالى:{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)} [الأعراف]

مَدْيَنَ كَلِمَةٌ تُطْلَقُ عَلَى القَوْمِ وَعَلَى القَرْيَةِ،وَمَدْيَنُ قَرْيَةٌ تَقَعُ فِي جَنُوبِيِّ الأَرْدُنِّ قُرْبَ العَقَبَةِ،وَهُمْ أَيْضاً أَصْحَابُ الأَيْكَةِ،وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ،وَيَرْتَكِبُونَ المَعَاصِي،وَأَظْهَرَهَا بَخْسُ المِكْيَالِ وَالمِيزَانِ،وَالتَّعَرُّضِ لِعَابِرِي السَّبِيلِ،لِسَلْبِهِمْ وَالاعْتِدَاءِ عَلَيهِمْ .

وَلَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ شُعَيباً عَلَيْهِ السَّلاَمُ،لِيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ،وَتَوْحِيدِهِ،وَتَرْكِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ وَعِبَادَةِ الأَصْنَامِ،وَالإِقْلاَعِ عَنْ تَطْفِيفِ المِكْيَالِ وَالمِيزَانِ،وَعَدَمِ التَّعَرُّضِ لِلسَّابِلَةِ بِالإِخَافَةِ وَالسَّلْبِ..فَقَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ:يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ،وَلَيْسَ لَكُمْ إِلهٌ غَيْرُهُ،وَقَدْ أَقَامَ لَكُمُ الحُجَجَ وَالبَرَاهِينَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ إِلَيْكُمْ،ثُمَّ نَصَحَهُمْ بِمُعَامَلَةِ النَّاسِ بِالعَدْلِ،وَبِإِيفَاءِ النَّاسِ،حُقُوقَهُمْ فِي الكَيْلِ وَالمِيزَانِ،وَبِأَلاَّ يَخُونُوا النَّاسَ،وَلاَ يُخْسِرُوا المِيزَانَ،وَلاَ يَبْخَسُوا النَّاسَ حُقُوقَهُمْ (أَشْيَاءَهُمْ)،وَأَنْ يَتْرُكُوا إِخَافَةَ السَّابِلَةِ .

وَقَالَ لَهُمْ إِنَّ اتِّبَاعَ أَمْرِ اللهِ فِيهِ الخَيْرُ لَهُمْ،إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِوحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى،وَبِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُهُ .

وَنَهَاهُمْ شُعَيبٌ عَنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ (الصِّرَاطِ)،وَعَنْ تَوَعُّدِ النَّاسِ بالقَتْلِ وَالإيذَاءِ إِذَا لَـمْ يُعْطُوهُمْ مَا مَعَهُمْ مِنْ مَالٍ وَمَتَاعٍ،كَمَا نَهَاهُمْ عَنِ التَّعَدِّي عَلَى المُـؤْمنينَ الـذِينَ اتَّبَعُـوا شُعَيباً،وَعَنِ التَّصَدِّي للنَّاسِ الذينَ كَانُوا يَأْتُونَ إلى شُعَيبٍ للاسْتمَاعِ منْهُ إلى مَا يَدْعُو إِلَيْـه النَّاسُ مِنْ أَمْرِ رَبِّه،لصَرْفهِمْ عَنْهُ بالتَّخْويف وَالإيذَاء،وَبالقَوْل:عَنْهُ كَذَّابٌ يُرِيدُ فتْنَةَ النَّاسِ،ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ بمَا كَانُوا عَلَيْه قَبلاً منْ قلَّة فَكَثَّرَهُمُ اللهُ،وَذلَّة فَأَعَزَّهُمُ اللهُ،وَذلكَ ليَتَّعظُوا وَيَرْتَدعُوا عَمَّا يَقُومُونَ به منْ فَسَادٍ.ثُمَّ لَفَتَ نَظَرَهُمْ إلَى النِّهَايَةِ التي صَارَ إِلَيْهَا المُفْسدُونَ في الأَرْضِ منْ خزْيٍ وَدَمَارٍ .

وَيُتَابعُ شُعَيْبٌ،عَلَيْه السَّلاَمُ،نُصْحَ قَوْمه فَيَقُولُ لَهُمْ:إِنَّكُمْ إن اخْتَلَفْتُمْ فيمَا بَيْنَكُمْ،فَآمَنَ فَرِيقٌ بمَا جئتُكُمْ به،وَدَعَوْتُكُمْ إليه،وَكَفرَ فَرِيقٌ بمَا أَرْسَلَني به إلَيْكُمْ رَبِّي،فَلا تَتَعَجَّلُوا الحُكْـمَ عَلَى المُؤْمنينَ،وَانْتَظرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ،بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ،وَيَفْصلَ فيمَا اخْتَلَفْنَا فيه.وَهُوَ سُبْحَانَهُ خَيْرُ مَنْ يُحْكُمُ،وَأَعْدَلُ مَنْ يَقْضي،وَلا شَكَّ في أَنَّهُ سَيَجْعَلَ العَاقبَـةَ للْمُتَّقينَ،وَسَـيَجْعَلَ الدَّمَارَ عَلَى الكَافرينَ،لأَنَّهُ سُنَّتَهُ تَعَالَى قَدْ جَرَتْ بذَلكَ،فَلْيَعْتَبر الكَافرُونَ بعَاقبَة مَنْ كَـانَ قَبْلَهُمْ،منَ الكُفَّار المُكَذِّبينَ .

تَوَعَّدَ المُسْتَكْبِرُونَ منْ قَوْمِ شُعَيْبٍ نَبِيَّهُمْ شُعَيْباً،وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ منَ المُؤْمنينَ بإخْرَاجهمْ مـنْ قَرْيَتهمْ إذَا لَمْ يَقْبَلُوا الرُّجُوعَ عَنْ دينهم الحَقِّ إلى عبَادَة الأَصْنَام وَملَّة الشِّـرك،فَقَالَ لَهُـمْ شُعَيْبٌ:أَتَأْمُرُونَنَا بأَنْ نَعُودَ إلَى ملَّتكُمْ،وَتُهَدِّدُونَنَا بـالنَّفْي مـنْ أَوْطَاننَـا،وَالإخْرَاجِ مـنْ ديَارنَا،إنْ لَمْ نَفْعَلْ مَا تَطْلُبُونَهُ منَّا؟ أَتُرْيدُونَ إجْبَارَنا عَلَى الخُرُوجِ منْ ديَارنَا،وَعَلَى العَـوْدَة إلَى دينكُمْ حَتَّى وَلَوْ كُنَّا كَارهينَ لكلا الأَمْرَيْنِ؟

وَقَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ:إنَّهُ وَالمُؤْمنينَ مَعَهُ إذَا عَادُوا إلَى ملَّة الكُفْر،فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ قد افْتَرُوا عَلَى الله أَعْظَمَ الافْترَاء،لأَنَّهُمْ يَكُونُونَ قَدْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ وَأَنْدَاداً وَلا يَليقُ بالمُؤْمنِ،وَلاَ يَخْلُـقُ به (وَمَا يَكُونُ لَنَا)،أَنْ يَعُودَ إلَى ملَّة الكُفْرِ بَعْدَ إذْ أَنْجَاهُ اللهُ منْهَا،إلاَّ أَنْ يَشَـاءَ اللهُ لَـهُ ذلكَ،فَإِنَّهُ تَعَالَى إذَا أَرَادَ أَمْراً فَعَلَهُ،وَلاَ رَادَّ لحُكْمه،وَلاَ مُعْتَرضَ عَلَى قَضَائه،وَقَدْ أَحَاطَ اللهُ بكُلِّ شَيءٍ علْماً،وَلَكنَّهُ تَعَالَى لاَ يَرْضَى الكُفْرَ لعبَاده .

ثُمَّ قَالَ شُعَيْبٌ لِقَوْمِهِ:إِنَّهُ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ هُوَ وَالْمُؤْمِنُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ.ثُمَّ دَعَا شُعَيْبٌ رَبَّهُ قَائِلاً:رَبَّنا احْكُمْ وَاقْضِ (افْتَحْ) بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مَعَهُمْ،وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ،وَأَنْتَ العَدْلُ الذِي لاَ يَجُوزُ فِي حُكْمِهِ أَبَداً .[١٣٤]

هكذا في تبجح سافر،وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش! إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد ..لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة ..نقطة المسالمة والتعايش - على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء وأن يدين للسلطان الذي يشاء:في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين - وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة،تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت ..وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه ..فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم،صدع شعيب بالحق،مستمسكا بملته،كارها أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها،واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله:«قالَ:أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ؟ قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها.وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها - إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا،وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً - عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا.رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ،وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» ..

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان،ومذاقه في نفوس أهله،كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه.كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع ..مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلى فيه.«قالَ:أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ؟ »

يستنكر تلك القولة الفاجرة:«لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» ..يقول لهم:أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التي نجانا الله منها؟! «قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها» ..

إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية،التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده،والتي يتخذ الناس فيها أربابا من دون الله يقرون لهم بسلطان الله ..إن الذي يعود

---

[١٣٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٠٤٠، بترقيم الشاملة آليا)

إلى هذه الملة – بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق،وهداه إلى الحق،وأنقذه من العبودية للعبيد – إنما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه.شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيرا فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت! أو مؤداها – على الأقل – أن لملة الطاغوت حقا في الوجود،وشرعية في السلطان وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله.فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله ..وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى،و لم يرفع راية الإسلام.شهادة الاعتراف براية الطغيان.ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة! وكذلك يستنكر شعيب – عليه السلام – ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التي أنجاهم الله منها:«وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها» ..وما من شأننا أصلا وما ينبغي لنا قطعا أن نعود فيها ..يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة،التي تعلن خروجها عن سلطانه،ودينونته لله وحده بلا شريك معه أو من دونه.

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده – مهما عظمت وشقت – أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة – مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! – إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه «الإنسانية» لا توجد،والإنسان عبد للإنسان – وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟! ..وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به،ورضاه أو غضبه عليه؟! ..وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟! على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة ..إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس – في حكم الطواغيت – أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج.كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات.فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها،فيذبحهم على مذبح هواه،ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه! ثم يكلفهم أعراضهم في

النهاية ..حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت،سواء في صورة الغصب المباشر – كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ – أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبا مباحا للشهوات تحت أي شعار! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار ..والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله.إنما يعيش في وهم،أو يفقد الإحساس بالواقع! إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال ..ومهما تكن تكاليف العبودية لله،فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة.فضلا على وزنها في ميزان الله ..

يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتاب:الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية:

« ...وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية،لا يخفى عليه أن المسألة – التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها – إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها.وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه،وأنه لا بد للركاب أن يسافروا – طوعا أو كرها – إلى تلك الجهة نفسها.فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية.ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طرا،ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر،وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية،وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم،وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها،وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية،وإنشاء النظام الجماعي،وتحديد القيم الخلقية.فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه ..فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح،وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم.وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها،وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تربو.إن لم تمحق وتنقرض آثارها.وأما إذا كانت هذه السلطة – سلطة الزعامة والقيادة والإمامة – بأيدي رجال انحرفوا عن الله

ورسوله،واتبعوا الشهوات،وانغمسوا في الفجور والطغيان،فلا محالة أن يسير نظام الحيـــاة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء،ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعـــاملات والعدالة والقانون برمتها،وتنمو السيئات ويستفحل أمرها ...»

والظاهر أن أول ما يطالب به دين الله عباده،أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين لـــه الطاعة والانقياد،حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى.ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى،وجاء به الرسول الأمي الكريم – ﷺ – ثم إن الإسلام يطالبهم أن يتعدم من الأرض الفساد،وتستأصل شأفة السيئات والمنكـــرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه.

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشـــر وتســـيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ولا يكون من أمر أتبـــاع الـــدين الحـــق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هـــؤلاء وينقـــادوا لجبروتهم،يـــذكرون الله قـــابعين في زواياهم،منقطعين عن الدنيا وشؤونها،مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة علـــيهم مـــن المسامحات والضمانات! ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق مـــن أهميـــة خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه.والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها ..ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة،حتى إن الإنسان ليســـتوجب القتل إذا خرج من الجماعة – ولو قيد شعرة – وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم.وهـــل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق،والإمامـــة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض.وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية،والـــذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها،يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرهـــا وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد ..ثم انظروا إلى ما كسب «الجهـــاد» مـــن المترلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين،حتى إن القرآن ليحكم «بالنفـــاق» علـــى الـــذين ينكلون عنه ويثاقلون إلى الأرض.ذلك أن «الجهاد» هو السعي المتواصل والكفاح المستمر

في سبيل إقامة نظام الحق،ليس غير.وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزانا يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين.وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل،أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق ..فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب،فاعلم أنه مدخول في إيمانه،مرتاب في أمره،فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك؟ » ...

«إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام.فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق،لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام،ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب،بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله،ويرجون حسابه،ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضيّ عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها»[١٣٥] ..

إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر ورده كله لله،إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم ..إنه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت – تحت رايته – بكل ما فيها من تضحيات ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول،كما أنها أذل وأحقر! ..إنه يدعوهم للكرامة،وللسلامة،في آن ..لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة:«قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها،وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها ..» ..

ولكن شعيبا بقدر ما يرفع رأسه،وبقدر ما يرفع صوته،في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه ..بقدر ما يخفض هامته،ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل،الذي وسع كل شيء علما.فهو في مواجهة ربه،لا يتألى عليه ولا يجزم بشيء أمام

[١٣٥] – مقتطفات من مقدمات كتاب «الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية» للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان.

قدره،ويدع له قياده وزمامه،ويعلن خضوعه واستسلامه:«إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا،وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً» ..

إنه يفوض الأمر لله ربه،في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه ..إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت،من العودة في ملتهم ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته ..ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم ..فالأمر موكول إلى هذه المشيئة،وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون،وربهم وسع كل شيء علما.فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.إنه أدب ولي الله مع الله.الأدب الذي يلتزم به أمره،ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره.ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه.

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم،ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق،يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق:«عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا.رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ.وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» ..وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر:مشهد تجلي حقيقة «الألوهية» في نفس ولي الله ونبيه

إنه يعرف مصدر القوة،وملجأ الأمان.ويعلم أن ربه هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان.ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه،والتي ليس منها مفر.إلا بفتح من ربه ونصر.عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم.ليفتنوهم عن دينهم:«وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ:لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ» ..

إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير ..إن الطواغيت يتوجهون أولا إلى الداعية ليكف عن الدعوة.فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه،واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته،ولم يرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل ..تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد،ثم بالبطش والعذاب ..إنهم لا يملكون حجة على باطلهم،ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم – وبخاصة تلك التي

عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل – ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان،الذي أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان.

ولكنه من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل،ويقفان وجها لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة الله التي لا تتخلف ..وهكذا كان ..«فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ،فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ» ..الرجفة والجثوم،جزاء التهديد والاستطالة،وبسط الأيدي بالأذى والفتنة ..

ويرد السياق على قولتهم:«لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ» ..وهي التي قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة! فيقرر – في تهكم واضح – أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا،إنما كان من نصيب قوم آخرين:«الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا.الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ» ..

ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين.لا حياة ولا حراك.كأن لم يعمروا هذه الدار،وكأن لم يكن لهم فيها آثار! ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال،والمفارقة والانفصال،من رسولهم الذي كان أخاهم،ثم افترق طريقه عن طريقهم،فافترق مصيره عن مصيرهم،حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم،وعلى ضيعتهم في الغابرين:«فَتَوَلَّى عَنْهُمْ،وَقالَ:يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ،فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ؟ » ..

إنه من ملة وهم من ملة.فهو أمة وهم أمة.أما صلة الأنساب والأقوام،فلا اعتبار لها في هذا الدين،ولا وزن لها في ميزان الله ..فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين،والارتباط بين الناس إنما يكون في حبل الله المتين ..[١٣٦]



[١٣٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ١٧٨٠)

الإيمان والحياة

إن العقيدة الإيمانية في الله،وتقواه،ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة،وعن خط تـــاريخ الإنسان.

إن الإيمان بالله،وتقواه،ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض.وعدا من الله.ومن أوفى بعهده من الله؟ ونحن – المؤمنين بالله – نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن،فنصدقه ابتـــداء،لا نسأل عن علله وأسبابه ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله ..نحن نؤمن بـــالله – بالغيـــب – ونصدق بوعده بمقتضى هذا الإيمان ..

ثم ننظر إلى وعد الله نظرة التدبر – كما يأمرنا إيماننا كذلك – فنجد علتـــه وســـببه! إن الإيمان بالله دليل على حيوية في الفطرة وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية وصـــدق في الإدراك الإنساني،وحيوية في البنية البشرية،ورحابة في مجال الإحساس بحقـــائق الوجـــود ..وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

والإيمان بالله قوة دافعة دافقة،تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها،وتتجه بهـــا إلى وجهـــة واحدة،وتطلقها تستمد من قوة الله،وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها،وفي دفع الفساد والفتنة عنها،وفي ترقية الحياة ونمائها ..وهذه كذلك من مؤهلات النجـــاح في الحياة الواقعية.

والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد.وما مـــن شـــك أن الإنســـان المتحرر بالعبودية لله،أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة.من العبيد للهوى ولبعضهم بعضا! وتقوى الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور،في دفعة الحركة ودفعة الحياة

وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج،فلا يعتدي،ولا يتهور،ولا يتجاوز حدود النشـــاط الصالح.

وحين تسير الحياة متناســـقة بـــين الـــدوافع والكوابح،عاملـــة في الأرض،متطلعـــة إلى السماء،متحررة من الهوى والطغيان البشري،عابدة خاشعة لله ..تسير سيرة صالحة منتجة

تستحق مدد الله بعد رضاه.فلا جرم تحفها البركة،ويعمها الخير،ويظلها الفلاح ..والمسألة – من هذا الجانب – مسألة واقع منظور – إلى جانب لطف الله المستور – واقع له علله وأسبابه الظاهرة،إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود ..

والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون،في توكيد ويقين،ألوان شتى لا يفصلها النص ولا يحددها.وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان،النابع من كل مكان،بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان.فهي البركات بكل أنواعها وألوانها،وبكل صورها وأشكالها،ما يعهده الناس وما يتخيلونه،وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال! والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة،لا صلة لها بواقع الناس في الأرض،لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة! وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله – سبحانه – وكفى بالله شهيدا.

ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس:«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ.وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» ..

ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمما – يقولون:إنهم مسلمون – مضيقا عليهم في الرزق،لا يجدون إلا الجدب والمحق! ..ويرى أمما لا يؤمنون ولا يتقون،مفتوحا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ ..فيتساءل:وأين إذن هي السنة التي لا تتخلف؟

ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال! إن أولئك الذين يقولون:إنهم مسلمون ..لا مؤمنون ولا متقون! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله،ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم،يتألهون عليهم،ويشرعون لهم – سواء القوانين أو القيم والتقاليد – وما أولئك بالمؤمنين.فالمؤمن لا يدع عبدا من العبيد يتأله عليه،ولا يجعل عبدا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره ..ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقا.دانت لهم الدنيا،وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض،وتحقق لهم وعد الله.

فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق ..فهذه هي السنة:«ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا،وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ»! فهو الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره.وهو أخطر من الابتلاء بالشدة ..

وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون.فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به،وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح ..وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة،مهددة في أمنها،مقطعة الأواصر بينها،يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال.فهي قوة بلا أمن.وهو متاع بلا رضى.وهي وفرة بلا صلاح.وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد.وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال ..

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى،بركات في الأشياء،وبركات في النفوس،وبركات في المشاعر،وبركات في طيبات الحياة ..بركات تنمي الحياة وترفعها في آن.وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال .[١٣٧]



[١٣٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ١٨٠٠)

قال تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) } [الأنفال]

يَأْمُرُ اللهُ المُسْلِمِينَ بِالاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ،وَبِإِعْدَادِ آلاتِهَا لِمُقَاتَلَةِ الكُفَّارِ،وَدَفْعِ العُدْوَانِ،وَحِفْظِ الأَنْفُسِ،وَالحَقِّ وَالفَضِيلَةِ،حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالاسْتِطَاعَةِ:مِنْ خَيْلٍ وَسِلاَحٍ وَعُدَدٍ وَمُؤَنٍ وَتَدْرِيبٍ وَعِلْمٍ وَكُلِّ مَا يَدْخُلُ فِي تَعْرِيفِ القُوَّةِ التِي تُمَكِّنُ الأُمَّةَ مِنْ مُقَاوَمَةِ خُصُومِهَا،بِحَسَبِ مَفْهُومِ العَصْرِ،وَذَلِكَ لإِرْهَابِ الكُفَّارِ - مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ غَيْرِهِمْ - أَعَدَاءِ اللهِ،وَأَعْدَاءِ الإِسْلاَمِ وَالمُسْلِمِينَ،وَلإِرْهَابِ الأَعْدَاءِ الآخَرِينَ مِنْ مُنَافِقِينَ وَيَهُودٍ يُجَاوِرُونَ المُسْلِمِينَ فِي المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَغَيْرِهِمْ،مِمَّنْ لاَ يَعْلَمُهُمْ رَسُولُ اللهِ وَالمُسْلِمُونَ،وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُهُمْ.وَيُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ أَنَّ كُلَّ نَفَقَةٍ يُنْفِقُونَهَا فِي الجِهَادِ وَالاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ،سَتُوَفَّى إِلَيْهِمْ بِالتَّمَامِ وَالكَمَالِ،وَلاَ يَبْخَسُ اللهُ أَحَداً مِنْهُمْ شَيْئاً .[١٣٨]

فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ويخص «رباط الخيل» لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة ..ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - والمهم هو عموم التوجيه:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في «الأرض» لتحرير «الإنسان» ..وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة:أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها،ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها ..

والأمر الثاني:أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسلام» التي تحميها تلك القوة ..

---

[١٣٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٢١، بترقيم الشاملة آليا)

والأمر الثالث:أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي،وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» كله في «الأرض» كلها ..

والأمر الرابع:أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية،فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه ..

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب،وتنظيما للشعائر،ثم تنتهي مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية.فلا مفر للإسلام – لإقرار منهجه الرباني – من تحطيم تلك القوى المادية،وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى،وتقاوم المنهج الرباني ..وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة ..ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني.ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا لتقرير سلطان زعيم،أو دولة،أو طبقة،أو جنس!

إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية ..إنما ينطلق بمنهج من صنع الله العليم الحكيم الخبير البصير ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعبيد ..هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي.[١٣٩]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[١٣٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٨٧)

الفهرس العام

القرآن الكريم يردُّ على مزاعم المشركين في شركهم ٦
القرآن الكريم يصحح عقائد أهل الكتاب وغيرهم... ١١
كمال الدين ببعثة محمد ﷺ... ١٧
السمات الأصيلة والعميقة للمنهج الحركي الواقعي لهذا الدين ٢٤
السمة الأولى:هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين ٤٣
والسمة الثانية في منهج هذا الدين ..هي الواقعية الحركية. ٤٤
والسمة الثالثة:هي أن هذه الحركة الدائبة،والوسائل المتجددة،لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة،ولا عن أهدافه المرسومة. ٤٥
والسمة الرابعة:هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى.. ٤٥
وجوب الجهاد لتحرير العباد من عبادة العباد لعبادة الله وحده ٥٤
مفرق الطريق بين العبودية للّه وحده والعبودية للهوى... ٧٢
طبيعة المنهج الحركي الإسلامي ٧٩
موقف الكفار والفجار من المؤمنين الموحدين ٨٣
الواقع التاريخي لنشوء ا المجتمع الإسلامي الحركي قبل الفتح وبعده ٩٢
تكاليف البيعة على الجهاد في سبيل الله... ١٠٥
الذين يفقهون هذا الدين حق الفقه.. ١١٤
ما عند الله تعالى من خير عميم خير مما يجمع الناس.. ١١٧
تكذيب الرسل واتهامهم بتهم كاذبة ديدن المستكبرين في الأرض................................ ١٢١
الدينونة للّه وحده وآثارها في الحياة الإنسانية ١٢٤
موقف الجاهلية من دعوة الرسل عبر التاريخ ١٣٦
رفع الإصر عن الموحدين ١٤٠
الراسخون في العلم يقولون ١٤٢
أول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية ١٤٣

التصورات الباطلة عند المشركين ١٤٦
حال المجتمعات البشرية اليوم ١٤٨
العبودية لله لا تلتقي مع عبودية غيره أبدا ١٥٢
الإيمان والحياة ١٦١
وجوب أعداد العدة لمواجهة الكفار ١٦٤